أثر التأصيل المنهجي في البناء المعرفي الإسلامي

أ.د حسن حميد عبيد
عضو هيئة التدريس بكلية الشريعة
والدراسات الإسلامية -جامعة قطر

الخلاصة

يُعدُّ التأصيل المنهجي الطريق الواضح الذي يسلكه الانسان بحثاً عن الحقائق المعرفية لبناء تصوراته الفكرية، وعند التركيب بين التأصيل والمنهج يصير مقصدنا التأسيس لضوابط منهجية تبني أصولاً صحيحة لتلقي المعرفة والتعامل مع المعلومات، وفقاً لضوابط عديدة منها التعبدي، والتدرج في طلب العلم، والانفتاح المعرفي الشمولي، والتنظيم المعرفي والسلوكي والنفسي، وفقه الواقع، وتنمية المهارات واكتساب الخبرات.

ومن المعلوم أن الأمة المسلمة تعاني أزمةً في المعرفة والتفكير بسبب الركود على أنماط معرفية معينة تحوي على بنية ضخمة من التراكمات المختلفة والمتباينة. ولذلك جاءت هذه الدراسة لتبيّن أهمية التأصيل المنهجي في بناء الإنسان المنظم في المعارف، والمصحح لتصوراته الخاطئة، والمميز بين الحقيقة ووجهة النظر، والمطور لذاته، والمتميز بسلوكه الحسن، وخلقه الرفيع، ويمكنه من الموازنة بين الأفكار، ويحرره من التعصب، ويلزمه بالتثبت، ويعرفه بمصادر تلقي المعلومة وحسن التعامل معها، ويمنحه أدوات التحقيق والتدقيق، وهو خير موصل إلى بناء المعرفة، والمرشد لاكتسابها.

ومحاولة إعادة ضبط المعرفة بمنهجية إسلامية عصرية تفضي إلى النهوض بالأمة، وعودتها إلى القيادة، وتحولها من مستوى الاستيراد المعرفي إلى تصدير المعرفة.

Abstract

The methodological rooting is the obvious way in which people search for the cognitive facts to build their intellectual perceptions. My purpose, in combining the rooting and the method, is to establish methodological fundamentals to adopt correct assets to receive knowledge and to deal with information according to many disciplines including worship, the gradual application of knowledge, cognitive, comprehensive, knowledge openness, behavioral and psychological organization, fact-finding, and skills development and experience acquisition.

It is known that the Muslim Ummah is suffering from a crisis of knowledge and thinking because of the recession on certain cognitive patterns that contain a huge structure of different accumulations. Therefore, this study is intended to show the importance of systematic rooting in the building of the organized man in knowledge, correcting his misconceptions, distinguishing between the truth and the point of view. In that way, he can balance ideas and liberate himself from fanaticism, receive information and good dealing with it, and get tools of investigation and scrutiny, which is good conduct to build knowledge .

This study tries to re-adjust the knowledge of modern Islamic methodology in a way that lead to advancement of the nation, and return to leadership, and to be transformed from the level of knowledge imports to the export of it.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين على ما تواتر من نعمه، وصلى الله وسلم على عبده ونبيه محمد نبي الرحمة وإمام الهدى، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوتهم إلى يوم الدين، وأما بعد:

فإن البيئة الإسلامية تشهد وفود زخم كبير من المذاهب الفكرية والتيارات المعاصرة التي ترسبت إليها، وعملت على التسويق الفكري لفلسفاتها الكبرى، مثل: الليبرالية[1]، والاشتراكية[2]، والوجودية[3]، فأثّرت في عقول جمع غفير من أبناء المسلمين، وفرّغتهم من العقيدة، فتاهوا في التعامل معها، وفي بناء معارفهم، وبلورة تصوراتهم، وكان لزامًا التأصيل لمنهج تلقي المعارف والعلوم؛ ليحفظ البناء المعرفي الإسلامي كيانه، وأصالته، وانفراده، ويراعي مطلب الهوية، ومتطلبات الحياة بغية النهوض بالأمة وتقدمها، وتفعيل دور العلم في المجتمعات المسلمة، فالوضع المعرفي الراهن يستدعي وقفةً جادةً، وروية في التفكر، وقراءةً فاحصةً للواقع، فالمشكلة المعرفية في عالمنا الإسلامي معقدةٌ ومركبةٌ، ومن السذاجة إرجاعها إلى عامل أو عاملين سواءً كان هذا العامل دينيًّا، أو سياسيًّا، أو اقتصاديًّا، أو اجتماعيًّا خالصًا، فهي مترابطة ومتشابكة من كل هذا وذاك كما هي مشكلة متعلقة بالتكوين والتحصيل، وشيوع مظاهر الاعتداد بالنفس، وفرض الرأي الواحد، والانغلاق والجمود كما يظهر جليًا في النموذج المعرفي السائد الذي بات باليًا، ولم يعد الترياق المجرب في التعامل مع المتغيرات المعرفية التي نشهدها اليوم.

إن التعاطي مع التنوع الكبير في سوق المذاهب المعاصرة ليست من الرفاهية الفكرية بل معاناة معرفية، وأزمة شديدة تدفع نحو الرغبة في إصلاح الوضع، وتعديل هذا النموذج القائم إلى آخر يلامس شغاف قلوب الشباب المسلم، ويصحح مسارهم العلمي من الانزلاق إلى أوحال التصادم في الرؤى الفكرية المتناقضة، خاصةً أن الخطاب الوعظي والدعوي مع جلالة طرحه، وجهد أصحابه؛ إلا أنه بالنسبة إلى شريحة واسعة من شباب المسلمين اليوم صار مملًّا ومنفّرًا بصيغته الجامدة، وهذا ما جرّهم إلى النزوع نحو الفلسفات المادية والإلحادية المتلونة بألوان متعددة، ومناهج متنوعة، فارتموا بأحضان وكلاء هذه الفلسفات الوافدة علينا في بلادنا الإسلامية التي بطبيعتها منفتحة على الآخر منذ الدعوة النبوية المباركة، إذ لم يعرف المسلمون الانغلاق والتشرنق إلاّ بتراجع دورهم الحضاري، وتخليهم عن الأخذ بأسباب النهضة، وميلهم إلى التعصب الطائفي، والانشغال بالمشاحنات المذهبية المذمومة، وهذا ما أثر في المعارف الإسلامية التي تراكم عليها حمل ثقيل من الجدل العقيم، والتنظير السقيم الذي لم يأمر الله تعالى به، ولا رسوله الكريم – صلى الله عليه وسلم -.

لقد أفرز هذا التنوع في المدارس الفكرية المعاصرة تعددًا في المناهج المعرفية، فأصحاب المنحى المادي يعتمدون على المنهج المادي الصرف الذي يرفض أي شيء غير محسوس أو قابل للتجريب، وهذا ما دفع بهم إلى إنكار الوحي والاستخفاف بالغيبيات، وقد تسلل هذا المنهج إلى عقول أبناء المسلمين، إضافةً إلى المناهج الوجودية التي تقول: ليس الإنسان إلاّ ما يصنعه من نفسه[4]، ولما شاعت هذه المناهج؛ تباين تعامل أهل العلم والفكر في الساحة الإسلامية معها بين متبنّ لها تبنيًا مطلقًا، وبين رافض لها رفضًا باتًّا، وآخر وسط يأخذ منها شيئًا، ويترك شيئًا، فدخل الشك في قلوب شباب المسلمين، وسبب ذلك القصور الذاتي في المعرفة الإسلامية المعاصرة كما قال محمد الغزالي: «**أمة هي خمس العالم من ناحية التعداد تبحث عنها في حقول المعرفة، فلا تجدها، في ساحات الإنتاج فلا تحسها، في نماذج الخلق الزاكي، والتعاون المؤثر،**

والحريات المصونة، والعدالة اليانعة، فتعود صفر اليدين! بماذا شغلت نفسها؟ بمباحث نظرية شاحبة، وقضايا جزئية محقورة، وانقسامات ظاهرها الدين وباطنها الهوى»[5].

ومع اندلاع ثورة المعلومات في العالم، وانتشار العولمة، حوصر العقل المسلم من كل جانب، وبات أرباب الفلسفات الغريبة الوافدة على البيئة الإسلامية يغذون شباب الأمة بأطروحاتهم الفكرية المستوردة، «**ولعل من أصعب الأزمات التي تعاني منها الأمة اليوم، هي غياب العقل المنهجي أو التفكير الناهج أي الواضح والبيّن والمستقيم، فإعادة تشكيل العقل المسلم الذي ننادي بها اليوم، إنما إعادة نهج له من جديد، أي إقامته على نظام واضح مستقيم، واستنهاج الفكر لدى الإنسان على العموم يعني قدرته على التفكير الواضح والمنظم**»[6]، فالوضع الراهن يدفع نحو إعادة بناء العقل المسلم، وتشكيل فكره، وخط منهج واضح يسير عليه؛ ليضبط معارفه، ولا يتحول إلى مكب نفايات للمخلفات الفكرية التي ترميها مصانع الفكر الغربي، فهذا لا يليق بالمسلم الذي أنعم الله عليه بأنوار الوحي؛ ليخرجه من الظلمات، وينير فكره؛ فيهتدي به، ويسترشد، ويعمل بما أمر الله سبحانه وتعالى، ويجعل الوحي قرينًا لعقله، فلا يقدم أهواءه ومدركاته القاصرة على الخطاب القرآني، فقدرات الإنسان في النهاية محدودة أمام قدرة الله المطلقة، والحاجة إلى تأصيل المنهج لبناء المعرفة الإسلامية ملحة ودافعة للعمل والتطوير في هذا الميدان، وتأسيسًا على ما سبق، تدور المشكلة البحثية في السؤال الرئيس الآتي: **ما أثر التأصيل المنهجي في البناء المعرفي الإسلامي؟**

أهمية البحث:

تستند الورقة البحثية في أهميتها إلى الركائز الآتية:

- الموضوع في ذاته يمس جانب مهم من جوانب حياة المسلمين المعرفية، فكان لزامًا البحث فيه.
- ازدياد وفود تيارات ومذاهب فكرية مختلفة أثّرت في العقل المسلم المعاصر الذي يعاني إشكالًا في التأصيل الممنهج.
- ضعف التأصيل المنهجي والحصيلة المعرفية أمر ملموس في الواقع الإسلامي، ولا بد من البحث في سبل المعالجة.

أهداف البحث:

ترمي الورقة البحثية إلى تحقيق جملة من الأهداف، ومن أهمها:

- التعريف بمفهوم التأصيل المنهجي، وتحديد ضوابطه، وعرض أهميته.
- بيان المقصود بالبناء المعرفي الإسلامي، وتسليط الضوء على مصادره، ومجالاته، ومقوماته.
- إيضاح تأثير التأصيل المنهجي في تشييد البناء المعرفي الإسلامي وتقويته.

الدراسات السابقة:

كتبت دراسات كثيرة في أزمة التأصيل المنهجي، والبناء المعرفي الإسلامي، والجهود في هذا المجال مباركة خاصة ما يقدمه المعهد العالمي للفكر الإسلامي الذي ينفرد بالتخصص في هذا الموضوع، وهذه الدراسة تعتمد على ما سبقتها من الدراسات، ومن أهمها:

1. **منهج قراءة التراث الإسلامي: بين تأصيل العالمين وانتحال المبطلين، للحسن العلمي**[7]: يقع الكتاب في 324 صفحة، واستهل مؤلفه بملامسة مواضع الخلل المنهجي في دراسة التراث الإسلامي التي تُعد من أوليات التأصيل للمعرفة الإسلامية قبل أي معارف أخرى، وصنّف الناظرين فيها إلى خمسة أصناف: التراثيون المتغنون بأمجاد الماضي، والحداثيون الثائرون على التراث، والمستشرقون الغائرون على التراث، والمتطفلون المتطاولون عليه، والعلماء النقاد في التعامل مع التراث.

وأوضح المؤلف أن نقد المعارف والآثار كان من صنيع السلف، ولهم فيه يد تنقب النافع والصالح، وتغربل التراث وتنخله؛ ليستوي البناء عليه في كل زمان، وهذا لا يكون إلاّ وفق قواعد منهجية حدّدها في ثلاث قواعد: إعادة النظر في مناهج قراءة التراث، ونقد المعرفة بتمييز الأصيل من الدخيل، والنظر في مستقبل الفكر الإسلامي، ثم انطلق المؤلف في بحث الموضوع بتقسيمه إلى ثلاثة فصول، وإيجازها السريع، تناول الفصل الأول الانحرافات المنهجية في دراسة التراث، وذكر منها: الجمود والتقليد، وتقديس آراء الرجال، والأهواء المُحدثة في بناء المعرفة الإسلامية، والضعف في صنعة النقد، والانبهار بتيار الحداثة، وضمور الاهتمام بالعلوم الكونية، واختلال سلم الأوليات، وفي الفصل الثاني شخّص معالم المنهج الإسلامي في قراءة التراث، ومنها: تجريد التوحيد سبيل المعرفة الإسلامية، والعلم لا ينبني على الظن والهوى، وصحة النقل، وكل الناس يُؤخذ من كلامهم ويُردّ إلاّ النبي – صلى الله عليه وسلم -، والعبرة في العلوم بكلام علمائها الراسخين لا المتعالمين، وأخيرًا ختم بالفصل الثالث الذي خصصه بالحديث عن التقويم العام لمجالات قراءة التراث الإسلامي، فتعرض إلى علم التوحيد، وظهور علم الكلام، وأهميته بين العلوم الشرعية، ونشأته وتطوره كما تطرق إلى البدع الدخيلة على المسلمين، وأثر الفلسفة والمنطق في المعرفة الإسلامية، والتصوف وأثره في الفكر الإسلامي، ومعالم انحرافه.

2. **نحو نظام معرفي إسلامي من تحرير فتحي ملكاوي**[8]: يقع في حدود 500 صفحة، ويجمع أوراق بحثية عديدة قدمها مفكرون، مثل: عبد الوهاب المسيري، ومحمود رشدان، وعرفان عبد الحميد، وأحمد داود أغلو، ووليد منير، وأنور الزعبي، وحمدي عبد الرحمن في أعمال حلقة دراسية متخصصة عقدها المعهد العالمي للفكر الإسلامي يومي 10 – 11 يونيو 1998م في العاصمة الأردنية عمّان بحضور 25 مشاركًا، وحرّر فتحي ملكاوي المشاركات في هذا الكتاب الذي جرى فيه التأكيد على الحاجة الماسة إلى بناء نظام معرفي إسلامي بتوظيف منهجية تتضمن عملية التوليد المعرفي، وتقديم البدائل، وتغيير زوايا النظر، وتقليب وجوه الرأي؛ ليحسن الفهم، ويتسع الإدراك، ويطرد نمو المعرفة.

3. **منهج القرآن في البناء المعرفي لمصطفى حوامدة**[9]: هدف إلى معرفة منهج القرآن الكريم في بناء المعرفة، وتوصل إلى أن القرآن بوجه عام قام ببناء المعرفة وقواعدها بناءً منظمًا منطلقًا من أصل واحد، وهو الكون والإنسان كمنظومة واحدة، فجعل الوحي والوجود المادي مصدري المعرفة الإنسانية، ومن هذه القاعدة دعت الدراسة إلى إعادة النظر في المعرفة الإسلامية الحالية وفق منهج قرآني قائم على الاجتهاد والتجديد.

4. **معالم في المنهج القرآني لطه جابر العلواني**[10]: من أهم الكتابات في هذا الباب إذ حاول مؤلفه تأسيس منهج علمي متكامل اعتمادًا على القرآن الكريم الذي يُعدُّ المصدر المركزي للمعارف الإسلامية، ويتكون المنهج في القرآن الكريم من عدة محددات موجودة في داخله، ومن أهمها: المحدد المنهجي الأول وهو التوحيد، إذ ركزت 81 سورة من القرآن على التوحيد، فلا يمكن أن يغفل أي باحث عن أن التوحيد دعامة أساسية، ولا يمكن التفريط بها أو إيجاد ما يصطدم بهذه الدعامة، إضافةً إلى محدد وحدة القرآن البنائية، والجمع بين القراءتين، وهذه المحددات من شأنها التأصيل لمنهج علمي يقوم بدوره في مجالات المعرفة، وكما تناول المؤلف موضوعات كثيرة، منها: التعريف بالمنهج لغةً واصطلاحًا، والقرآن والمنهج، وتحديد المنهج بين الكتاب والسنة والتراث.

وعلى جلالة قدر الدراسات السابقة إلاّ أن هذه الدراسة تختلف عمّا سبقتها في التعامل مع متغيري التأصيل المنهجي والبناء المعرفي الإسلامي حصرًا لما لهما من علاقة وثيقة خاصةً بمتابعة المستجدات الفكرية التي طرأت على الساحة المعرفية الإسلامية، وكما تميل إلى التيسير والتبسيط دون التعمق الشديد الغامض الذي يخل بأصل الموضوع، ويخرجه عن سياقه، ويفقده معناه، فهذه الدراسة محاولة نحو فهم الواقع المنهجي ومعالجة إشكالاته بغية استكمال بناء المعرفة لدى العقل المسلم في هذا العصر الذي تباينت فيه المناهج.

منهج البحث:

بالنظر إلى الموضوع الذي يعالجه البحث، أُعتُمد على المنهج الوصفي الذي يصف الواقع المنهجي في البيئة الإسلامية، ثم التحليلي الذي يحلله تحليلًا ناقدًا بغية الوصول إلى تصور متزن في بيان الآثار التي يجنيها البناء المعرفي الإسلامي عند تأصيله تأصيلًا منهجيًّا منضبطًا بضوابط الشرع المنير والعقل المستنير.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة موضوع البحث تقسيمه إلى مقدمة، وثلاثة مباحث: المبحث الأول، يتناول التأصيل المنهجي من ناحية مفهومه، وضوابطه وأهميته، وأما المبحث الثاني، فيتناول البناء المعرفي الإسلامي، مفهومه، ومصادره، ومجالاته، ومقوماته، والمبحث الثالث مخصص لأثر التأصيل المنهجي في بناء البناء المعرفي للعقل المسلم المعاصر، ثم خاتمة تلخص أبرز النتائج، وتطرح جملة من التوصيات المقترحة في هذا الصدد.

المبحث الأول

التأصيل المنهجي: مفهومه، وضوابطه، وأهميته

المطلب الأول: مفهوم التأصيل المنهجي:

التأصيل من "الأصل" الذي يعني في اللغة: أساس الشيء، وما ينبي عليه غيره، وهذا البناء قد يكون حسيًّا كما في قوله تعالى عن النخلة: ﴿**أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ**﴾ [11] أو عقليًّا كبناء المدلول على الدال[12]، وفي الاصطلاح، يعرفه فتحي حسن ملكاوي بـ«**تأصيل الشيء أو الفكرة يكون بردها إلى أصلها ضمن النظام المعرفي المعتمد في موضوع البحث، فتأصيل الفكرة هو بحث استرجاعي** Retrospective **يحاول ربط الفكرة بتاريخها وماضيها، أو هو بحث تحليلي يحاول ربط الفكرة الفرعية بأصلها الكلي أو**

المثال بقاعدته»[13] في حين يقول عبد الحليم مهورباشة بأن التأصيل «**التفكير في المنهج الذي تتم به دراسة الظواهر الاجتماعية والإنسانية من خلال تحديد الموضوعات المختلفة للحقول الفرعية للعلوم الاجتماعية كتحديد موضوع علم الاجتماع، موضوع علم النفس، التاريخ، علوم سياسية ...إلخ**»[14]، ويُلاحظ أن التأصيل يحوي على التصنيف دلالةً على التنظيم في المعرفة، فمن أصَّلَ نفسه منهجيًّا يعرف كيف يصنف معارفه، ومعارف غيره؛ لأن التأصيل ينمي ملكة التمييز بين صنوف المعارف المختلفة وفق أدوات الربط والاسترجاع.

وأما المنهجي، فمنسوب إلى المنهج، وفي معاجم اللغة العربية: النهج، والمنهج، والمنهاج: الطريق الواضح، ونهج الطريق، أنهج واستنهج وضح، وكذا نهج الطريق، وأنهجه: أبانه وأوضحه، ونهجه: سلكه[15]، وفي الاصطلاح يعرفه الدكتور عبد الرحمن بدوي بأنه «**الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة**»[16]، فيما يذهب الدكتور قاسم عبده قاسم بأن «**المنهج هو مجموعة العمليات العقلية الاستدلالية تستخدم في حل مشكلات العلم، وبناء العلم نفسه في مرحلة ما من تاريخه**»[17]، أما فريد الأنصاري، فيختصر تعريف المنهج بأنه «**نسق من القواعد والضوابط التي تركب البحث العلمي وتنظمه**»[18]، والظاهر تقارب التعريفات، فعلى هذا يذهب طه العلواني إلى أن المنهج «**وسيلة إلى قيادة العقل الإنساني إلى الحقيقة أو إلى ما يغلب على الظن أنه الحقيقة حتى لو لم تكن هي الحقيقة في الواقع أو نفس الأمر ... والمنهج وسيلة وأداة لبناء قواعد التفكير وإرساء دعائم ضوابط البحث العلمي والمعرفي التي من شأنها أن تعصم الذهن من الوقوع في الخطأ في الفكر وفي البحث العلمي**»[19]، وهذا يفي بالغرض والمقصود، فالمنهج ما يسلكه الإنسان بحثًا عن الحقائق المعرفية، وبناءً لتصوراته الفكرية، وفي هذا تختلف المشارب، وتتنوع طرائق الوصول إلى الحقائق، وتتباين الغايات والوسائل، وعليه يتنافس المتنافسون في ميادين العلم والمعرفة.

وعند تركيب "التأصيل" و"المنهج" يكون مقصودنا بالتأصيل المنهجي: التأسيس لضوابط منهجية تبني أصولًا صحيحة في تلقي المعرفة، والتعامل مع المعلومة، وإجادة خطوات البحث العلمي، وتشكيل الوعي، واستنارة الفكر للترقي في السلم المعرفي.

المطلب الثاني: ضوابط التأصيل المنهجي:

توجد جملة من الضوابط التي يجب أن تراعى لضبط التأصيل المنهجي لبناء معارف ذات تصورات صحيحة، ومع اختلاف في تقسيمات هذه الضوابط بين الباحثين إلاّ أننا أفردنا الأكثر أهمية في هذا المضمار وفق الآتي:

أولًا - الضابط التعبدي:

يضمن للمسلم الإخلاص في العلم، فيتجرد تجردًا كاملًا من كل العوائق الذاتية التي يتعرض لها الباحثون في مشاريعهم البحثية، فتوقعهم في مقام العظمة، والعجب بالنفس، أو تأثيرات أفكارهم سابقة؛ في حين هذا الضابط يجعل الباحث المسلم في طلبه للعلم متعبدًا لله، ومخلصًا له، ومن التزم بهذا الضابط لا خوف عليه

من آفات البحث الراجعة إلى نزاهة الباحث، مثل: عدم الأمانة في النقل، أو السطو على منجزات الآخرين وأفكارهم، وعدم بذل الوسع والجهد في جمع المادة المبحوث فيها، ويحفّز لعمل عظيم يرجو منه مرضاة الله سبحانه وتعالى[20]، وقد دلّت الأدلة الشرعية القاطعة على فضل العلم، ومنزلة العلماء كقوله تعالى في محكم كتابه المجيد: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[21]، فالواجب المحتوم على طالب العلم أن يغرس في نفسه هذا الضابط، ويستذكره دائمًا، فلا يسعى من وراء علمه نيل مكاسب الدنيا، فينسى ربه، ومن المعلوم أن العبادات لا تُبنى على جهل، وعلى المكلف أن يتعلم ما يتعبد به ربه، فالعلم عبادة تخلص لله وحده، وفيه منافع للأمة، ونهوض بحالها إلى أحسن حال، ولا يتحقق ذلك عندما يرخص من قيمته، وينزع الجانب التعبدي منه، فيتحول إلى ممارسة أو عادة لإنهاء مرحلة دراسية معينة، أو لنيل مركز دنيوي والترقي فيه، أو للشهرة وإبراز النفس والبهرجة الإعلامية، وهذا لا يليق بأهل العلم وروّاده، وفيه من الرياء المحرم شرعًا، فالانضباط بهذا الضابط يؤصل لمنهج معرفي قائم على الخشية من الله تعالى قبل كل شيء، والسير في طريق العلم لذاته؛ لأنه يؤدي إلى الله سبحانه وتعالى، واتباع لسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم – وهديه وأمره، ففي الحديث: «**من سلك طريقًا يلتمس به علمًا سهّل الله له طريقًا إلى الجنة**»[22]. ومن دأب علماء الأمة الأفاضل حث تلامذتهم على الدعاء والاستغفار والاستذكار لما فيه من الإعانة على طلب العلم ومشقاته، وتقوية للملكات المعرفية[23]، وقد كتبوا في فضائل العلم ما يطول ذكره، ويصعب شرحه في هذا الموضع، ومن شواهد هذا الضابط قول الإمام ابن حزم الأندلسي - رحمه الله -: «**أجلّ العلوم ما قربك من خالقك تعالى، وما أعانك على الوصول إلى رضاه**»[24]، فعلى طالب العلم أن يبحث في العلوم الجليلة التي تقربه إلى ربه سبحانه وتعالى.

ثانيًا – ضابط التدرّج في طلب العلم:

لا شك أن طلب العلم جهد تراكمي، وبناء يحتاج إلى تكوين معرفي، ويمرّ عبر مراحل طويلة، ولا يكون ذلك في يوم وليلة، وليس التعجّل والتسرع من سمات أهل العلم، فعلى الإنسان أن يعرف متى يبدأ في طلب العلم؟ ومن أين يبدأ؟ وكيف يبدأ؟ ويستفيد من تجارب الآخرين وطرائقهم في مدارج العلم، ويتجنب العثرات المبتسرة، والتدرج في طلب العلم يؤصّل المعارف في الأذهان حتى تشرب العقول الفارغة من معين العلوم، ويسقي الجاهل عطشه المعرفي، فالإنسان يولد جاهلًا في الأصل، قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[25]، ولكن شيئًا، فشيئًا يتأمل ما حوله، ويحاكي الآخرين، ويعتمد على معارفهم في الحياة حتى يكبر، وينهض بنفسه في طلب العلم، وبطبيعته عجول، ويملّ الصبر، قال تعالى: ﴿**وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا**﴾[26]، وهذا ما لا ينبغي أن يكون لطالب العلم الذي يمتد من المهد إلى اللحد، فلا يكل ولا يمل، وكل يوم يتعلم شيئًا جديدًا، ويزيل غشاوة الجهل عن نفسه، ويبصر ما كان يجهله، فالعلم مسارات متعددة، ومحطات متتالية، والتسرع والتعجل يبني تصورات خاطئة، ويعطي نتائج مختلّة، ومن لا يتدرج في طلب العلم لن يبصر حقيقته، ولن يفرّق بين قواعده ومسائله، فيفسد منهجه، وينكفئ من منتصف الطريق، ويكتفي بما لديه، ويغرق في ظنون امتلاك ناصية العلم، وإظهار

الذات أمام الآخرين، وهذا عين الجهل، وعلاجه الترقي في سلم المعرفة، والبدء من السهل إلى الصعب، ومن المختصر إلى المطول، ومن الجزء إلى الكل.

ثالثًا – الضابط الشمولي والانفتاح المعرفي:

نتيجةً لثورة المعلومات والانفجار المعرفي، والتطور التقني الذي أدى إلى تنوع وسائل التعلم ومصادر المعرفة، والعولمة الثقافية التي يشهدها العالم الذي تحول إلى قرية صغيرة، صار يحتم على المرء أن يقلص حدود التخصصية، ويميل إلى الشمولية، والانفتاح على العلوم المتنوعة التي باتت متداخلة، ومن الضيق المعرفي الانغماس في التخصصية، والتحجر فيها، فمن أبرز الإشكالات المعاصرة قولبة العقول، وتحويلها إلى علب جاهزة وأوعية صغيرة تصب في داخلها صنوف معينة وخاصة من المعارف على الرغم من الزخم في توافر المعلومة، والشمولية لا تعني اتخاذ موقف سلبي مطلق من التخصصية بل تعني التكامل والتوفيق بينهما، فلا ضير أن يكون الإنسان متخصصًا في مجال دقيق، ومع ذلك يتوسع ويشمل معارفه مجالات أخرى دون أن يغلق الباب على نفسه، ويحجر عقله في غرفة واحدة خاصةً مع تيسّر سبل الاطلاع على العلوم الأخرى، فمتى ما شعر الإنسان بنقص في جانب ما عليه أن يجتهد ويبذل طاقته؛ ليكمله، ويطلع على ما لدى الآخرين من العلوم، فيؤصل نفسه على الانفتاح والاطلاع على التخصصات الأخرى إلى جانب تخصصه، ومع هذا للعلم حرمته، وهذا ليس تحجيرًا وتقييدًا للعقل، ولكن حفظًا لمقام العلم من عبث المتعالمين به، واقتحام ما لا يُحسن من الاختصاصات، والاستقلال بالحكم على كل شيء من نزق الجاهلين، وليس سمت العلماء العارفين، فالجاهل وحده يظن أن له القدرة على أن يدلي برأيه في كل العلوم، ويظن في نفسه المنفرد بامتلاك المعرفة، كما أن الشمول يعني أيضًا بناء قواعد لمعرفة قوانين تحكم ظاهرة ما، «**وهذه الظاهرة (هي بالمصطلح القرآني) سنن يجب أن تكون من الشمول بحيث لا يمكن تأطيرها في زمان أو مكان محدد، فحين نرى تفاحة تسقط، فإن ذلك يتعدى في المعرفة التفاحة؛ لنطبق قانون الجاذبية على كل جسم، وعند كل الناس من أولهم إلى آخرهم**»[27].

رابعًا – ضابط التنظيم المعرفي:

تنظيم المداخل والمفاهيم إلى الجهاز المعرفي لدى الإنسان له أهمية قصوى؛ إذ يعرفه أين يضع المعلومة في خانتها الصحيحة؛ ليسهل عليه تاليًا استرجاعها متى ما أراد، فيبرمج عقله وفق نظام واضح، وعقل الإنسان دقيق في عمله، والعشوائية تؤدي إلى عطبه وتعطيله، وقد تجد صنوفًا من المتعلمين لديهم زخم كبير من المعلومة نتيجة القراءات العشوائية، ولكنهم لا يحسنون تنظيمها؛ ليستفيدوا منها، وغاية تصنيف العلوم تنظيم المعرفة، وغاية التعريفات وضع الحدود لمنع التداخل بين المفاهيم، ولن يكتمل البناء المعرفي دون تأصيل منهجي منظم، فالتنظيم يرشد العقل؛ ليوضع هذا الحجر هنا، وذاك هناك حتى يتم البناء بأبهى صورته، ومتى ما فسد التنظيم المعرفي وقع المتعلم في تيه وحيرة، فيتخبط خبطًا عشواء، فلا يدري أين ذاهب كضال في قفار، وفي هذا يختصر الدكتور عبد الكريم بكار القول: «**ومعنى التنظيم هنا هو عدم ترك الأفكار تسير حرةً طليقةً، وإنما ترتب بطريقة محدّدة، ومنظّمة عن وعي، وحين يمتلك المرء خطوطًا واضحة يعالج من**

خلالها الظواهر المختلفة، يقال إنه امتلك منهجًا علميًّا، وامتلاك المنهج أشبه بامتلاك مفتاح منجم من الذهب»[28].

خامسًا – الضابط الواقعي:

لا بد من فهم الواقع المعرفي المحيط، والرؤى الفكرية السائدة، والمذاهب المعاصرة، وعدم تغافلها والانغلاق على الذات، فالإنسان ابن بيئته، ويتأثر بما فيها كما يؤثر فيها، وينبغي له أن ينطلق من هويته، ويستكشف نفسه وما حوله، ويعرف حاجات مجتمعه المعرفية، والمفكرون من سائر الأمم ينطلقون من هوياتهم، ويبنون على تراثهم، فلا يعقل أن يكون امرؤ ابن بيئة عربية، ويحمل ثقافة فرانكفونية، كيف يعالج مشكلات بيئته المعرفية وهو يلبس لباس غيره؟ هذا محال؛ لأنه جعل نفسه غريبًا عن مجتمعه، ومغيّبًا عن واقعه، وطرحه لن يلقى رواجًا أو يعالج معضلةً، وهذه الغربة المعرفية تقتل جهده، فهذه الصين تغزو العالم بمنتجاتها، وقلّما تجد منزلًا في العالم ليس فيه منتج صيني، ومع ذلك لم تتخل عن هويتها ولغتها وكذا ألمانيا، وفرنسا، واليابان، وسنغافورا، وكوريا الجنوبية، ومما لا ريب فيه أن المجتمعات البشرية متنوعة ومتباينة، وهذه حقيقة لا يمكن الجدال فيها، ولكل مجتمع احتياجاته، ومشكلاته، فمن الهزل والسخف إسقاط مشكلات مجتمعات ما على مجتمعات أخرى أو حتى الحلول لهذه المشكلة، فقد تكون ناجعة في بيئة معينة، ولمشكلة محددة، وغير ناجعة في بيئات أخرى، والباحث الحاذق يستكشف ذلك عندما يؤصل نفسه، وينطلق من واقعه، وإلاّ ما استفاد من علمه، وكان فهمه مبتورًا لحركة الاجتماع البشري، وهذا ما يظهر في اتجاهات التغريب والقطيعة مع التراث، والنفور التام من الهوية ومتطلباتها الواقعية كما أن من لوازم التأصيل المنهجي معرفة نقائص المجتمع في الجانب العلمي، واحتياجاته المعرفية، والتحديات الفكرية التي يواجهها أبناء هذا المجتمع، فيحمل الإنسان همًّا معرفيًّا، ويساهم في تصحيح واقعه، فلو كان تخصصه الحقوق والقانون مثلًا، ويرى انفلات القانون في مجتمعه، فعليه أن يحمل همّ التثقيف القانوني، وتعزيز الحقوق، وبذلك يجمع بين العلم والعمل أو التنظير والتطبيق.

سادسًا – الضابط السلوكي والنفسي:

إن التأصيل المنهجي يؤسس لإنسان مهذّب، ومتسلح بالعلم، ومتحلٍّ بفضائل الأخلاق، وعظائم القيم، ومنضبط السلوك، ومتحكم بذاته، ومسيطر على اضطراباته النفسية وانفعالاته المتقلبة، فمن الإشكالات التي تقف عائقًا أمام طالب العلم الانحراف في السلوك، والميل إلى سوء الطبائع كالتعصب، والغضب، وقلة الصبر، والطيش، والحنق، والغل والحسد، ومثل هذا كثير الوقوع، ومن كان هذا حاله، فلن ينفع به العلم، ولا ينتفع به، فإن لم ينعكس العلم على صاحبه، فما الفائدة منه؟ يقول الإمام ابن حزم: «**منفعة العلم في استعمال الفضائل عظيمة، وهو أنه يعلم حسن الفضائل، فيأتيها ولو في الندرة، ويعلم قبح الرذائل، فيجتنبها ... فعلى هذه المقدمات يجب أن يكون للعلم حصة في كل فضيلة، وللجهل حصة في كل رذيلة، ولا يأتي الفضائل ممن لم يتعلم العلم**»[29]، فلا مريةَ في عظم حاجة المتعلم إلى تهذيب سلوكه، والتحكم بنفسه، فيتصف بالخصال الحميدة، وينبذ مساوئ الأخلاق، وخوارق المروءة التي تعيق التعلّم، فالعلم فضيلة، ولا يمكن الوصول إليه بمنهج رذيل، ولا خير في علم لم يعلم صاحبه الخلق، والتأصيل السلوكي مهمّ في

المنهج العلمي؛ ليبتعد المرء عن انحرافات المبطلين السلوكية كإفساد مجالس العلم بالتحاسد، والتحريش بين العلماء بالغيبة والنميمة، وإيغار الصدور. والتربية الأخلاقية ركن رئيس في التعلم بل قرينة للعلم، والتربية والعلم صنوان، فقد كان الإمام مالك بن أنس (ت 179 هـ) يقول: «**كانت أمي تعممني، وتقول لي: اذهب إلى ربيعة؛ فتعلم من أدبه قبل علمه**»[30]، وكذا عبدالله بن المبارك (ت 181 هـ) قال قولًا بليغًا في هذا الصدد: «**نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثيرٍ من العلم**»[31].

سابعًا – ضابط تنمية المهارات واكتساب الخبرات:

لبناء المعارف أدوات يحتاج المرء إليها كحاجة المهندس لأدوات البناء لتخطيط المبنى ووضع أساساته، وعدم امتلاك المهارات يقف عائقًا كبيرًا أمام اكتساب المعارف، وفي الحياة العملية أصبحت من الشروط اللازمة التي يجب أن تتوافر في العاملين، فتميز المؤهل من غير المؤهل، ولذلك يجب مراعاة هذا الضابط، فإلى جانب التأصيل تبرز الحاجة إلى التأهيل في المهارات العصرية، مثل: مهارة استخدام الحساب الآلي، فمما يعيب طالب العلم اليوم عدم تمكنه من استخدام الحاسوب خاصةً أنه من الوسائل الرئيسة في التعلم المعاصر، وباتت المواد العلمية ترفع على الشبكة العنكبوتية، وللتوصل إليها، والتعامل معها لا بد من مهارة، وممارسة تقنية، ومن المهارات المهمة كذلك: مهارات تطوير الذات، والتفكير الناقد، والمغالطات المنطقية، والاعتناء بالخزينة اللغوية، وإجادة أكثر من لغة، والاهتمام بفنون الإلقاء والخطابة، والناس متفاوتون في مهاراتهم، ولكن هذا لا يعني عدم بذل الجهد؛ لتملك أكبر عدد من المهارات التي من لوازم التأسيس الممنهج، وهذا ما تفرضه احتياجات العصر، وتنمية المهارات ضرورة لا تنفك عن طلّاب العلم، فالعلم نشاط ذهني مثلما الرياضة نشاط جسدي، فمتى توقف المتعلم عنه أصيب بالخمول والكسل، والمهارات تنشطه وتحفزه، وتطوره، وعلى طالب العلم أن يعرف قدراته، وما يمتلكه من المهارات، ويعمل على مواكبة العصر واحتياجاته، وعليه أيضًا ألا يكتفي بالتعليم الحر المعتمد على الذات لما يتسم بالعشوائية، وعدم الانضباط؛ بل ينبغي الاستعانة بخبرات المعلّمين وإرشاداتهم، وإسلاك طريق السابقين، ومعرفة مناهجهم في طلب العلم؛ لأنه عملية تشاركية لا تتم دون الاستفادة من تراكم الخبرات بين المتعلمين، فالمتلقي للمعارف يحتاج إلى من ينقل إليه المعرفة، ويزيل عنه غشاوة الجهل، ويرشده إلى طريق التبصرة في العلوم.

المطلب الثالث: أهمية التأصيل المنهجي:

تنبع أهمية التأصيل المنهجي في بنائه للإنسان المنظم في معارفه، والمتوسع في مداركه، والمبدع في تفكيره، والمصحح لتصوراته الخاطئة، فلا تهزه الشبهات العابرة، ولا التنظيرات التافهة، فيميز بين الغث والسمين، والحقيقة ووجهة النظر، ويفرق بين الصائب والخاطئ، ويطور ذاته، فلا يجمّد عقله بل ينضجه، ولا يسلمه إلى الآخرين؛ ليستعملوه بدلًا منه بل يجمع عقولهم إلى عقله، ويضع الله نصب عينيه دائمًا، ويدعوه الزيادة في العلم، والتوفيق والسداد في العمل، ويبذل الجد والجهد في سبيل الوصول إلى الحقيقة، ويمتاز بالسلوك الحسن، والخلق الرفيع، فهو شجاع متواضع، فمتى ما ثبت لديه بالدليل خلاف رأيه رجع عن غلطه ولم يكابر، ويستغفر إن أخطأ، فالعلم غايته لا وسيلته لتحقيق مآرب مؤقتة، ويحب المتعلمين، ويجل العلماء، ويأنس بمجالسهم، ويثمن وقته، ويبذله في اكتساب المعرفة، ولا تكسر أشرعته أمواج التحديات الفكرية

العاتية، ولا يخذله ما يثار من سقيم الرأي، وعليل الفكر، ولا يتعصب للأفكار الجاهزة وأصحابها، فتنزلق أقدامه إلى منحدرات الغلو، ومزالق التطرف؛ لأن التأصيل المنهجي يمكّن صاحبه من الموازنة بين الأفكار، فيقوّم جيدها من فاسدها، وهزيلها من قويمها، فلا ينقاد لكل قول يقال ما لم تثبته الدلائل النقلية والعقلية القاطعة، ويسترشد في طريق التعلم بخبرات غيره، ويشكر جهدهم، ولا يبخس الناس حقهم، ويعرف كيف يتلقى المعلومة، ويحسن التعامل معها، ويجيد توظيفها، وتطويرها والاستفادة منها، فالمعرفة العلمية لا تحصل إلا بمنهج قائم على التحقيق والتدقيق، ويمنح حصانة للعقل من التعثر في مطبات خدع خطابات التيارات المتلاعبة بالأفكار والمخادعة للعقول، فمن حرس عقله بمنهج مؤصل يعرف أن العلم ليس بقوة سبك الجمل، وفن الإنشاء، وتزويق العبارات، وتنميق الألفاظ الجوفاء بل بقوة الدليل وسلطان البرهان.

إن التأصيل المنهجي خير حافظ بعد الله للمتعلم من السقوط في شباك الشبهات المثارة، فمن أصّل نفسه تأصيلًا منهجيًّا صحيحًا كان بناؤه المعرفي قويًا لا ينهار بسرعة، ولا يتكئ على الغير، فيكون مقلدًا جامدًا بل يبدع ويضيف ما يخدم حاجة أمته ومجتمعه، فلا يغيب عن واقعه، ويغرق في خيالات الماضي، وما أحسن قول طه العلواني عندما قال: «**وللمنهج مصادر بناء وتكوين تنتجه، فإذا صلحت مصادر التكوين المنهجي، واستقامت؛ صلح المنهج، واستقام، وإن هي اختلت أو اضطربت اختل المنهج واضطرب**»[32]، فبالتأصيل المنهجي وحده ينفض غبار التيه، ومن أهم أساليبه التربية والتبصرة، والمعارف الرائعة مبنية على أصول نافعة، فتأصيل المنهج بناء لطريق موصل إلى المعرفة، فهو الموجه والمرشد لاكتساب معرفة سليمة وفق خطوات المنهج العلمي دون إضلال في الطريق أو انحراف في الغاية أو حيرة في المقصد، وتسير خطوات التأصيل للمنهج عند دراسة أي ظاهرة بتسلسل يبدأ من الملاحظة، ثم الوصف، ثم الفهم، ثم التحليل، ثم التفسير، ومن ثم ينطلق بناء النموذج المعرفي إلى التنبؤ والتحكّم، وهذا كله من أهم وظائف المنهجية العلمية التي لا بد أن يتأصل عليها طالب العلم، والساعي في سبيل المعرفة، ومع تنوع المناهج في شتى العلوم، فلكل علم منهاجه، ولا مناص من التمييز بين المناهج المتعددة، وحفظ ضوابطها؛ لأنها الوسيلة لفهم العلوم، والتعامل معها، «**وبحسب نوع المعرفة ومصادرها يجري ضبطها، فالمرويات السمعية لا بد من إخضاعها لضوابط الصحة، والدعاوى لا بد من ضوابط للبرهنة على صحتها والاستدلال عليها بحسبها كذلك، وهكذا يعمل المنهج مع كل نوع من أنواع المعرفة؛ ليضبط بحسبه، وتبنى قواعده، وتصاغ مسائله، وتبنى الدربة والملكة فيه بمقتضاه**»[33]، وما أقوم التأصيل المنهجي عندما يجمع بين الأصالة والهوية، والواقعية والتجديدية، وبين التخصصية المنفتحة والتنظيمية المرتبة حتى يكوّن خريطةً للبناء المعرفي للعقل المسلم، وهذا ما سنتطرق إليه في المبحث القادم.

المبحث الثاني:البناء المعرفي الإسلامي: مفهومه، ومصادره، ومجالاته، ومقوماته

المطلب الأول: مفهوم البناء المعرفي الإسلامي:

البناء المعرفي يتكوّن من مفردتي: البناء والمعرفة، والأولى أصلها من مادة" بني" التي تدور معانيها في اللغة العربية حول: الإنشاء، والدخول، والثبوت[34]، قال الكفوي: «**البناء لغةً: وضع شيء على شيء على صفة يُراد بها الثبوت**»[35]، ويبيّن فتحي حسن ملكاوي أن: «**مفهوم البناء يصاحبه التخطيط، والتصميم،**

والتنظيم، ويقابله التكديس، والتجميع العشوائي»[36]، وأما المعرفة، فأصلها مادة "عرف"، ولغةً تعني العلم، يقال عرّفه الأمر: أعلمه إياه، وعرّفه بيته: أعلمه بمكانه، وتُعرّف اصطلاحًا: «**إدراك الشيء على ما هو عليه**»[37]، وتعرف أيضًا بـ«**المدركات اليقينية التي يمكن الوصول إليها من طريق النبوة أو العقل أو الحس، والتي تكتسب بالنظر والبحث**»[38]، والبناء المعرفي مصطلح رائج في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ويُعدُّ أحد المفاهيم المتعلقة بطبيعة العلم لدى من يراه بأنه مادة بناء متراكم ومنتظم من المعارف التي تضم جميع أشكال المعرفة الإنسانية على هيئة مكونات أساسية، كما يعرف أيضًا بكل ما توصل إليه العلم من حقائق، ومفاهيم، وقوانين، ونظريات[39]، ويجدر التنبه إلى الترادف اللفظي بين البناء المعرفي والنظام المعرفي، وهما لا يختلفان في التعريف الاصطلاحي إذ يعرّف نصر محمد عارف النظام المعرفي بأنه «**يشير إلى ذلك المركب الذي يشتمل على تحديد مصادر معينة للمعرفة، ويقيم العلاقات بينها، ويحدد تدرجها وهرميتها، ويعين في الوقت نفسه طرائق نقدها ومعايير هذا النقد، وأسس مشروعيتها، ومبررات الاعتماد عليها، والاعتقاد فيها أنها معرفة حقيقية، والرضا بنتائجها**»[40].

كما يُفصّل عارف في تعريف البناء المعرفي الإسلامي بأنه: «**مجموع المبادئ والكليات والأصول المستندة إلى الوحدانية التي ينتظم في إطارها التعامل مع مصادر المعرفة، ووسائل الوصول إلى المعرفة من تلك المصادر، وبواعث المعرفة، والمعوقات التي تعترض تلك البواعث والوسائل، والغايات المعرفية التي يتوقع الوصول إليها في ظل ذلك**»[41]، ويمكن إيجاز المقصود بالبناء المعرفي الإسلامي وإيضاحه بصورة أدق، فهو كل ما يكوّن معرفة العقل المسلم، ويخلق وعيه في وجوده وواقعه سواءً في الجانب الديني أو الدنيوي، ويتعامل معه بضابط الوحي وأدوات البحث العلمي، وبذلك تدخل الحقائق، والنظريات، والمفاهيم، والقوانين ضمن نطاق ما يبني عليه المسلم عند تكوين معارفه إلاّ أن الحد الفاصل بين البناء المعرفي الإسلامي وما عداه عنصر الوحي الإلهي، فالمسلم يبني معارفه انطلاقًا منه خلافًا للأبنية المعرفية الأخرى التي يغيب عنها هذا الضابط الرئيس.

المطلب الثاني: مصادر البناء المعرفي الإسلامي:

تعتمد المعادلة المعرفية في الإسلام على مصدرين رئيسين، وهما: الوحي، والكون، وأداتهما: العقل، والحس، والوحي يمثّله القرآن الكريم بصفته المصدر المُنشئ، والسنة النبوية المطهرة بصفتها المصدر المُبيّن، وأما الكون، فيمثله، ثلاثة عناصر: مادية (الطبيعة بظواهرها وأحداثها)، واجتماعية (الاجتماع البشري بشعوبه وقبائله وحضاراته وثقافاته)، ونفسية (كنه الإنسان وما يحتويه من جسم، وعقل، وروح، وما يمتلكه من معارف وانفعالات ومهارات)[42]، واعتمادًا على هذه المصادر ينطلق المسلم في تكوين معارفه، ويؤسس لأفكاره، فينطلق من الوحي بصفته المصدر الأول لرؤية الوجود، والبحث في أسراره، ويسترشد به لاكتشاف الكون، وقوانينه، ونواميسه، وقد أنعم الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة بنعمة الوحي ليضيء طريقها من الانحراف والانجرار وراء نقائص العقول البشرية القاصرة، فالوحي يمثل الكمال الإلهي في المعرفة المطلقة التي لا تضاهيها أي معرفة أخرى.

وقد استخلص طه العلواني من هذه الآيات الكريمة: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[43] نظرية الجمع بين قراءة الوحي وقراءة الكون استنادًا إلى دلالة السياق، ولكلا القراءتين «**معناها المُراد بها، ولكل منهما خصائصها، ومجالها، ومتعلقها، ومناهجها، وكيفياتها، وميادينها**»[44]، والوحي سراج منير، وللعقل خير نصير، وعمله إمداد العقل المسلم بحاجته من العلم بالغيب، وتوضيح غايته من الخلق، وتوجيهه في خلافة الكون، والحياة، والإعمار، والإصلاح على علم ونور ويقين، فلا يحتار بهواجس الشكوك والظنون، و«**هذا ما كان عليه عهد السلف الأول، وهذا ما يكون عليه العقل المسلم إذا استقام أمره، وصلح أداؤه، لا خلط، ولا تشويش، ولا عماية، ولا جهد ضائع، ولا طاقة مهدرة، ولا تخبط، وقلق، وشك دائم لا يزول، وعماية لا تريم**»[45]، ومن ينظر في حال الذين جرفتهم التيارات العلمانية من أبناء المسلمين يظهر له إصابتهم بالشكوك والحيرة لبُعدهم عن علم الوحي الذي يستمد منه العقل المسلم قوته، وتوازنه، وثباته، واستقامته، وخلافته في هذا الكون «**على مقتضى توجهات الإرادة الإلهية وغاياتها تكاملًا مع ما أودع الله في النفوس والكائنات من فطرة وسنن بلوغًا إلى سبل السلام، وإلى الصراط القويم**»[46]، والوحي والكون بصفتهما مصدَري المعرفة في البناء الإسلامي لا ينفكان، ولا يتجزآن، بل كل منهما يكمل الآخر دون تعارض أو تقابل، فالمسلم يفهم الكون، ويستكشف في ضوء معطيات الوحي غاية الحياة، ومعايير حركتها، وهذا ما دعا إليه الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[47]، وفي تفسير هذه الآية قال الطبري: أي كيف بدأ «**الله الأشياء؟ وكيف أنشأها وأحدثها**»[48].

المطلب الثالث: مجالات البناء المعرفي الإسلامي:

انطلاقًا من مصدرية الوحي والكون في البناء المعرفي الإسلامي، فإن المجالات العلمية التي يعمل به العقل المسلم واسعة باتساع ما جاء به الوحي من عقائد وتشريعات، والكون من قوانين ونظريات، والمادة المعرفية التي يغرف المسلم منها كبيرة، فالإسلام لا يحجر على العقول، بل يطلق لها العنان في البحث والاستكشاف، ولما كانت الحضارة الإسلامية في أوج ازدهارها أنتجت علماء شهد لهم بالموسوعية والجمع بين العلوم الدينية والدنيوية، مثل: ابن الهيثم، وابن سينا، والرازي، والفارابي، ومع ذلك، فإن العلوم اليوم تميل إلى التخصيص والتصنيف بسبب الثورة المعلوماتية الكبيرة التي قادها التطور التقني، فأصبحت مادة مشاعة يتلقفها من يريد، ومحاولات تقسيم العلوم كانت مبكرة لدى المسلمين، فالإمام أبو حامد الغزالي المتوفى سنة 505هـ قسّمها إلى علوم عقلية وأخرى دينية، ثم قسّم كلًّا منهما إلى كلية وجزئية كما دوّن ذلك في كتابه المستصفى، إذ قال: «**اعلم أن العلوم تنقسم إلى عقلية كالطب، والحساب، والهندسة، وليس ذلك من غرضنا، وإلى دينية كالكلام، والفقه وأصوله، وعلم الحديث، وعلم التفسير، وعلم الباطن أعني علم القلب وتطهيره عن الأخلاق الذميمة، وكل واحد من العقلية والدينية ينقسم إلى كلية وجزئية، فالعلم الكلي من العلوم الدينية هو الكلام، وسائر العلوم من الفقه وأصوله والحديث والتفسير علوم جزئية**»[49] ثم بعده ببضعة قرون تطرّق ابن خلدون إلى تقسيم العلوم، فقال: «**اعلم أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلًا وتعليمًا هي على صنفين: صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره،**

وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه»[50]، ومثّل للصنف الأول بالعلوم الفلسفية التي يبدعها الإنسان بإعمال عقله، وللأخير بالعلوم النقلية الوضعية المستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي، وأصلها الكتاب والسنة، وتستتبعها علوم اللسان العربي، ثم جاء الشيخ محمد عبده، وقسم العلوم إلى مقاصد تقصد لذاتها كالعقيدة، ووسائل توصل إلى غيرها كالنحو[51]، وما زالت جهود العلماء مستمرة في تقسيم العلوم، وعلى إثر ذلك نفضّل تقسيمها إلى ثلاثة مسارات أو مجالات يقوم عليها البناء المعرفي الإسلامي المعاصر وفق الآتي:

- **مجال العلوم الإسلامية (الشرعية):** يُعدُّ هذا المجال اللبنة الأولى، والحزمة الرئيسة لبناء المعرفة الإسلامية، وعادةً ما يطلق عليه التراث الإسلامي، ونرى خطأ هذا الإطلاق؛ لما فيه من دلالة سلبية إلى القدم البالي، وتتخذه تيارات الحداثة اصطلاحًا للقطيعة المعرفية مع هذه العلوم الشريفة التي بلورها العقل المسلم طوال قرون مديدة للتعامل مع الوحي، وهي علوم ليست جامدة بل متجددة، وهذا المجال يشمل كل ما أنتجه العقل المسلم من علوم ومعارف، مثل: العقيدة ولواحقها كالملل والنحل، والفقه وأصوله، والتفسير وأصوله، والسنن وشروحها، ومصطلح الحديث وعلوم الرجال، والسير والتراجم، والسياسة الشرعية، والسلوك والأخلاق، واللغة والأدب، ويمثل هذا المجال الدائرة المغلقة الخاصة بالمسلم، ومنها يتوسع إلى الدوائر المعرفية الأخرى، وهي تعطيه الحصانة الفكرية عندما يؤصل نفسه جيدًا في هذا الميدان الشرعي، فمنه يعرف التكاليف والفروض الواجبة عليه، ويفقه الأوامر والنواهي الشرعية الضابطة لحياته، وسلوكه، وفكره، وينوّر عقله بأنوار الوحي.
- **مجال التراث الإنساني:** يُقصد به كل ما خلّفته الإنسانية طوال تاريخها في ميادين العلم والمعرفة، إذ نشترك مع إخوتنا في الإنسانية بتراث معرفي عام يخص كل البشرية، ومن أمثلته: الفلسفة والمنطق، والتواريخ القديمة، والآثار التي خلّفها البشر، والفنون، والثقافات، والقوانين، والجغرافيا، ويجب التعامل مع هذا التراث بإيجابية، ورؤية متفحصة وناقدة لا بالإعجاب الأعمى المنبهر بكل شيء دون أسس، ولا بالنبذ الساذج الساخط والكاره لكل ما لدى الآخر دون معيار، والتعامل الإيجابي مع التراث الإنساني يكون باستيعاب المفيد، وتجاوز ما لا يفيد، وقد استفاد المسلمون منذ صدر الإسلام الأول من معارف الأمم الأخرى في المجال العسكري، والسياسي، والاقتصادي وكذا المعرفي، وقد استوعب الإسلام ما لدى الأمم الأخرى من علوم نافعة، وأضاف إليها.
- **مجال العلوم المعاصرة:** لقد وصلت الجهود الإنسانية إلى تطوير معارف أدت خدمة عظيمة للحياة البشرية في المجالات المختلفة خاصةً في الطب والتشريح وما يتعلق بجسد الإنسان وصحته، وكذا في البيئة والحفاظ عليها، والاستفادة من الطاقات التي أودعها الله سبحانه وتعالى في باطن الأرض، وتقسم العلوم المعاصرة إلى علوم طبيعة كالفيزياء والكيمياء والأحياء ...إلخ، وعلوم إنسانية واجتماعية، مثل: علم الإنسان، وعلم الاجتماع، والسياسة، والاقتصاد، والتاريخ، والآثار ...إلخ، وكل هذه العلوم ترمي إلى دراسة الإنسان ومحيطه الاجتماعي والطبيعي، وتطوير قدرات المعرفة الإنسانية للوصول إلى أقصى حد يمكن الاستفادة منها لخدمة البشرية.

هذه المجالات كلها متداخلة فيما بينها، وبينها ترابط شديد حتى ظهرت تقسيمات حديثة لها تقسمها إلى مجالات تخصصية منفردة لا تشترك مع غيرها بأي صورة من الصور، ومجالات بينية مشتركة تُبنى على علوم أخرى أعلى منها[52]، وينبغي للمعارف الإسلامية أن تبني نفسها بالتحرك في هذه الدوائر دون التوقف عند نقطة معينة كما يحاول الحداثيون أن يقاطعوا المعارف الإسلامية والاكتفاء بالمعارف الحديثة بذريعة عدم الخلط بين العلم المجرد والدين أو المنغلقون المحسوبون على بعض التيارات الإسلامية التي ترمي إلى إقفال العقل المسلم في صندوق العلوم الشرعية وعدم تجاوزه إلى غيره من المجالات بحجج واهية كالحفاظ على الدين من علوم البشر، وفي الرد على هؤلاء يقول محمد الغزالي: «**العلم عندنا يستحيل أن يخاصم الدين أو يخاصمه الدين، وقضية النزاع الموهوم بين العلم والدين لا صلة له بالدين الصحيح، قد يقع النزاع بين العلم وبين البوذية والبرهمية أو عقائد اقتبست منهما، أو متدينين انتسبوا إلى الله، وأبَوا السير على طريقة المرسوم، فغضب عليهم لما كذبوا عليه**»[53].

المطلب الرابع: مقومات البناء المعرفي الإسلامي:

يرتكز البناء المعرفي الإسلامي على جملة من المقومات الفريدة التي تميزها عن بقية الأبنية المعرفية الأخرى، إلاّ أننا سنقتصر على أهم هذه المقومات، ومنها:

- **مقوم الربانية:** تقوم المعرفة الإسلامية في بينتها على ركيزتي المرجع الرباني (المنهجية)، والمقصد الرباني (الغائية)، والركيزة الأولى تعني أن المنهج الذي يتبعه المسلم مرسوم من الله سبحانه وتعالى، ومصدره الوحي المنزل على نبينا - صلى الله عليه وسلم -، يقول العلامة يوسف القرضاوي: «**الإسلام هو المنهج أو المذهب أو النظام الوحيد في العالم الذي مصدره كلمات الله وحدها غير محرفة، ولا مبدلة، ولا مخلوطة بأوهام البشر، وأغلاط البشر ، وانحرافات البشر**»[54] ثم يفصل بأن المناهج القائمة في العالم اليوم ثلاثة خلا الإسلام: منهج بشري مصدره العقل المحض (كالليبرالية والرأسمالية والوجودية)، ومنهج ديني بشري، ولا أصل إلهي له أو كتاب سماوي (كالبوذية)، ومنهج ديني مُحرّف وإن كان أصله إلهي (كاليهودية والنصرانية)، والركيزة المنهجية موصولة للركيزة الثانية المتعلقة بالغائية، فالإسلام «**يجعل غايته وهدفه البعيد هو حُسن الصلة بالله تبارك وتعالى، والحصول على مرضاته**»[55]، يقول تعالى: ﴿**وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ**﴾[56]، وللإسلام غايات دينية ودنيوية، والمعارف تدخل فيها جميعًا، ومن ثمرات هذا المقوم: معرفة غاية الوجود الإنساني، والاهتداء إلى الفطرة، وسلامة الفكر، واستقرار النفس، والتحرر من نوازع الذات والشهوات، و«**العصمة من التناقض والتطرف، والبراءة من التحيّز والهوى، والقدسية والاحترام، وسهولة الانقياد، والتحرر من عبودية الإنسان للإنسان**»[57].

- **مقوم التوحيد:** التوحيد مفهوم مركزي في الخطاب الإسلامي، وجوهر العقيدة الإسلامية، ومحور الرؤية المعرفية الإسلامية فكرًا ونظرًا، ومدخل مفسر للظواهر النفسية، والسلوكية، والنظمية، والمعرفية على مختلف الأصعدة، ويمثل الحجر الأساس في تكوين الرؤية الشاملة عن الكون، والحياة، والإنسان، «**وفي الوقت نفسه يحقق قدرة كبيرة على صياغة المفاهيم الضرورية لبناء فاعلية الإنسان، وتشكيل دافعية العمران والتسامي فيه، وإيجاد المنطلقات المعرفية والثقافية السليمة لدى الإنسان**»[58]، والتوحيد إجابة كافية عن الأسئلة

الكبرى التي أرّقت الإنسان، وبه حدّد معنى الحياة، ويمثل القيمة الكبرى في الإسلام، وأساس لكل القيم الأخرى، وآثاره في كل المجالات واضحة، وهو نور ضد ظلام الشرك، وعلمٌ ضد الجهل، وتحرير من عبودية كل شيء سوى الله سبحانه وتعالى، ويمثل جوهر النظام العقدي في البناء المعرفي الإسلامي، وكل المعارف في الإسلام موصولة إليه، وتنطلق منه.

- **مقوم التكامل المعرفي:** يُعدُّ التكامل المعرفي الإطار المرجعي لمنهج الإسلام في التفكير، والبحث، والتعامل الرشيد مع مسائل العلم، والسلوك في الحياة، فالمعرفة الإسلامية تسعى إلى الخروج من ثنائية التقابل والتضاد إلى التوافق، والتكامل، والانسجام، وتقوم معادلة التكامل المعرفي على ثلاثة عناصر: تكامل بين المصادر التي ذكرتها سلفًا أي الوحي والكون، فلا يستغني مصدر عن الآخر، وتكامل بين الأدوات أي العقل والحس، وينتج عن ذلك تكاملًا بين المصادر والأدوات، فالأداة وسيلة للتعامل مع المصدر، وليس مصدرًا قائمًا بحد ذاته. وبذلك يخرج العقل المسلم من جدلية تعارض النقل والعقل، فكما يقول محمد الغزالي: «**أما العقل السليم، فهو الأداة الوحيدة لفهم الوحي والكون على سواء، ومن ثم فما دمت مستقيمًا مع عقلي، فأنا متشبث بديني، وسائر على الفطرة، وبعيد عن الانحراف**»[59]. ويساهم هذا التكامل المعرفي في اكتساب المعرفة، وفهمها وتفسيرها، وتوظيفها، وإيجاد مخرج للتوفيق بين الأفكار بدلًا من التصادم المعرفي الناتج عن تضارب المناهج، وتقعّر مسائله، وهذا ما يساعد على تحوّل المعرفة الإسلامية في رؤيتها للعالم؛ لتكون أكثر شموليةً، وأوسع نطاقًا.
- **مقوم الوسطية:** اتخذ الإسلام لنفسه خطًّا مميزًا مخالفًا لكل الأبنية المعرفية المتطرفة في تصوراتها، فالإسلام في بنائه المعرفي وسط بين الغلو والجفاء، وبين الإفراط والتفريط، ويعمل على الجمع والتوفيق بين الروح والمادة، والدين والدنيا، والعلم والعمل، والأصالة والحداثة، فلا يأخذ موقفًا منغمسًا في السلبية من المادة كالديانات الشرقية، مثل: الجينية والطاوية، ولا موقفًا غارقًا في بحر المادية المحضة كالفلسفات العلمانية النفعية، ولا منحازًا انحيازًا مطلقًا للحسيات المجردة أو متطرفًا تطرفًا أعمى في زاوية العقليات. وهذه الوسطية الإسلامية عبّر عنها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾[60]، وهي تعطي مرونةً لحركة الفكر الإسلامي للمواءمة مع المتغيرات التي تفرضها أحوال الزمان والمكان والإمكان؛ لتسير المعارف الإسلامية نحو التجديد، وتفعيل المقاصد الشرعية والغايات العظمى التي يرمي إليها الشرع الحكيم، فالعقل المسلم وفق هذا المقوّم لا بد أن يؤصل على التيسير لا التعسير، وعلى التبشير لا التنفير، يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: «**يسّروا ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تنفّروا**»[61].
- **مقوم العالمية:** ينطلق الإسلام في رؤيته ورسالته نحو العالمية، وهو دين دعوي مفتوح ليس قوميًّا منغلقًا كاليهودية والهندوسية، ويعمل على تصحيح التصورات الخاطئة العالقة بعقول البشر، وهذا ما دعا إليه القرآن الكريم صراحةً في قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[62]، والإسلام بما فيه من «**وحي وتشريع وفكر لم يأت ليكون مقتصرًا على جنس معين، وإنما هو للناس كافة**»[63]، وعالمية الإسلام في الدعوة والفكر والمعرفة لا ترفض التباين والاختلاف، بل تقرّ بذلك تقريرًا للواقع، يقول تعالى: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾[64]، وهذه الرؤية الإسلامية العالمية تخالف العولمة التي

تسعى إلى تنميط اتجاه معين وتعميمه على العالم دون الحفاظ على الخصوصية الثقافية والمعرفية، «**ولقد طرح القرآن مفهوم العالمية كإطار ينفتح على شعوب الأرض دون إلغاء الهويات المشخصة، وطبيعة التواجد البشري على هذه الأرض طبيعة تقر بالتنوع**»[65]، والإسلام يعزّز هذا التنوع، ويثريه عبر التعارف، يقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّـهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّـهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[66]. ولا شك أن هذا التعارف سيولّد تلاقحًا في المعارف، وتجاوبًا مع المفاهيم المتنوعة والأفكار المتعددة بين الأمم والشعوب المختلفة؛ لتكون النتيجة سعي الإنسانية جمعاء «**نحو الإنتاج الفكري والمادي الذي فيه سعادة الجميع وليس سعادة طرف على حساب تعاسة طرف**»[67]، ولذلك تبنى النظرية المعرفية الإسلامية على الكليات الخادمة للعالمين عمومًا، ولا تقتصر على رؤى جزئية ضيّقة بأُطُر حزبية وطائفية، وقومية، ووطنية، يقول عبد الكريم بكار: «**إن العلم لا يكون علمًا حتى يكون عالميًّا، وما لم يكن كذلك فهو ظنون وأوهام**»[68]، وهذه العالمية التي ينطلق منها الإسلام تمد جسور التواصل مع الآخر، وتشيّد صروح التفاعل الحضاري، وتصب في مصلحة نفع البشرية عامةً.

المبحث الثالث:أثر التأصيل المنهجي في البناء المعرفي الإسلامي

إن المعارف أقفال يفتحها المتعلم بمفاتيح المناهج، ولكل بناء معرفي مناهجه الخاصة به كما لكل قفل مفتاح خاص به، وجودة البناء المعرفي للفرد ليست في كثرة المعلومات بل في المنهج المؤصل، فالمعلومة يسهل اكتسابها، وهناك معارف عامة لا تحتاج إلى بذل جهود كبيرة في فهمها، وهي أشبه ما تكون بالمسلّمات، ولكن التأصيل للمنهج يحتاج إلى تأمل ونظر، واجتهاد وصبر، فالمعارف التي تبنى وفق المناهج ليست كتلك المعارف العامة، وهذا ما يميز بين معرفة النخبة الثقافية ومعرفة عامة الناس البسطاء الذين لا يشغلون أذهانهم في فلسفات العلوم ونظريات المعرفة، فغاية مرادهم الحصول على المعلومات الجاهزة دون عناء كبير خلافًا لذي العقل المؤصّل بمنهج إذ لا يسعى إلى مجرد الحصول على المعلومات والمعارف، بل ينتقل إلى مرحلة متقدمة تخص توليد المعارف، وتصنيفها، وتمييزها فهمًا ونقدًا، ومن هنا تظهر ميزة التأصيل المنهجي الذي يصنع العقل المولّد للأفكار والمتفاعل مع الأطروحات الفكرية المختلفة وفق بناء معرفي متين، ولهذا التأصيل المنهجي أثرٌ كبيرٌ في البناء المعرفي الإسلامي، فهو أساس بالنسبة إلى هذا المبنى، ومن دونه لا يقوم بل يسقط فورًا؛ إذ أي بناء دون أساس سيؤول إلى السقوط حتمًا، والناظر في أحوال الحداثيين المشغّبين على المعرفة الإسلامية يجد أنهم لا يعتمدون على منهج رصين، ولا ينطلقون من رؤية كلية واضحة، وإنما يتتبعون جزئيات بسيطة هنا وهناك، ويضخمون منها، وهذا حال من لا يؤصل منهجًا لبنائه المعرفي، وفي هذا المحور سنركز على أربعة آثار ومظاهر للتأصيل المنهجي في البناء المعرفي الإسلامي، وذلك في المطالب الآتية:

المطلب الأول: ترتيب المداخل المعرفية:

الجهاز الذهني لدى الإنسان أشبه بجهازه الهضمي، فليس كل شيء يستطيع أن يأكله ويهضمه، وكذا العقل لا يستوعب كل شيء دفعةً واحدةً بل لا بد من خطوات منظمة وإشارات منبهة، وخطوط عريضة يسير فيها العقل عند تدشين أي معلومة تدخل فيه، فالمدخلات المعرفية العشوائية لا تبقى في ذاكرة الإنسان طويلًا،

وأسرع للنسيان خلافًا للمدخلات المنظمة التي تكون وفق منهج واضح مبني على نظرية معرفية ذات معالم بيّنة، فالمنهج بمنزلة المعالج أو القلب في الجهاز الذهني الذي يستقبل صنوف مختلفة من المدخلات المعرفية كالمفاهيم، والمصطلحات، والنظريات، والحقائق تصورًا وتصديقًا، وهذه المُدخلات يجب أن تكون صحيّة وإلاّ فسد العقل، وتعطل الجهاز الذهني عن أداء وظيفته على أكمل وجه كما يفسد الجهاز الهضمي بالطعام الملوث غير الصحي، فالحاجة إلى ترتيب المداخل المعرفية بالغ الأهمية، والتأصيل المنهجي يؤثر في ذلك إذ المنهج في أساسه يعتمد على الترتيب لا البعثرة والتشتيت؛ لأنه يفرق بين المعارف الممنهجة التي تتبعها الصفوة الثقافية في المجتمعات، والمعارف السائدة التي تتبناها الجماهير التي لا تثقل على نفسها عناء البحث بل تشكّل وعيها بناءً على المعرفة الثقافية الشائعة التي لا تعدو كونها مسلّمات موروثة، في حين أن التأصيل المنهجي يبني نمط تفكير قائم على الوصف، والتحليل، والنقد، والمقارنة، والتخطيط، والتسلسل، وهذا ما يساهم في تنظيم البناء المعرفي لدى العقل المسلم، وتسليحه بأدوات البحث؛ ليتعامل مع المعلومات المختلفة التي يتعرض لها تعاملًا فاحصًا وناقدًا لا مقلدًا مسلّمًا.

عندما يتجول العقل في أروقة أي علم يأخذ رؤيةً إجماليةً عنه، ويستعرض خطه العام، وينقّب في تاريخه، وفلسفته، وقواعده، ومرتكزاته، ورموزه، وأقوال أهله، ومصادره ودلائله؛ ليستوعبه، ويلتقط منه صورًا كليّة تطبع في الأذهان، وهذا ما تسير عليه نظريات المعرفة المعاصرة التي تبحث في إمكان المعرفة، ومصادرها، ووسائلها، وأنواعها، وهذا أيضًا مسلك أصيل في العلوم الإسلامية، فقد أشار أبو العرفان محمد بن الصبان – رحمه الله – إلى عشرة مبادئ لكل فن علم بقوله[69]:

إن مبادئ كل فن عشرة	**الحد والموضوع ثم الثمرة**
وفضله ونسبة والواضع	**والاسم الاستمداد حكم الشارع**
مسائل والبعض بالبعض اكتفى	**ومن درى الجميع حاز الشرفا**

والإحاطة بكل علم يستدعي التمكن من هذه المبادئ، وكان دأب المصنفين المسلمين التقعيد للعلوم وفقها، وهي لا تختص بعلم دون علم، فإنها سمات عامة مجردة نستطيع أن نعبر عنها بدستور العلم، وكل علم له قانون ذو مواد وبنود، وطالب العلم يتقيّد به إن أراد أن يتفقه ويتثقف إلاّ أن التعامل مع هذا القانون العلمي يختلف باختلاف المناهج، فهناك مناهج صحيحة موافقة له، وأخرى شاذة مخالفة له، وهذا ما يستوجب قراءة المناهج ومقارنتها بمعرفة أنواعها، وسلبية كل نوع وإيجابيته، وذلك بالدربة، وسعة الاطلاع، والتمييز بين الأنساق المعرفية المختلفة، ولن يتم ذلك إلاّ بالتأصيل المنهجي ومعرفة مدخل كل علم ومخرجه، فلكل علم حد فاصل يفصله عن غيره من العلوم، ودون ذلك تختلط المعارف، وتتشابك المسائل، فإن لم ينتج عن التأصيل المنهجي للبناء المعرفي ترتيب لمداخل المعرفة، فلا أثر له، ولا فائدة منه بل لا بد من إعادة النظر في التأصيل نفسه، والعمل على سد نواقصه؛ لتظهر نتائجه الإيجابية في سبيل بناء معرفي رصين، والناظر بعين متفحصة في الواقع سيرى كثيرين من المتحذلقين الذين يعتلون المنابر، ويتحدثون في علوم الإسلام لم يدخلوها من بابها، ولا يعرفون مداخلها من مخارجها حتى كلامهم تمجّه الأسماع؛ لقلة الاطلاع، ولا ينبغي أن ينزل العقل المسلم إلى هذا الحضيض؛ لكيلا يخرج بكوارث في المنهج الذي له «**خطر عظيم في إدراك**

الحق أو الانزلاق نحو الباطل، إذ إن الاشتغال بنخل الفروع المتشابهة لا ينضبط بغير أصول، ومنهج يرجع إليه؛ لأنه أمر تفنى دونه الأعمار، وتنقضي في غمراته الأزمان، ولا ينتهي»[70]، والترتيب أداة بحثية منهجية تستخدم في كل العلوم؛ ليسهل التمييز بين المحكم والمتشابه في القرآن الكريم مثلًا، والمعرب والمبني في كلام العرب، والعام والخاص، والمطلق والمقيد في أصول الفقه، وهكذا في سائر العلوم، وبذلك يتضح هذا الأثر العظيم الذي لولاه لتداخلت المناهج، وفسد البناء المعرفي وهدم.

المطلب الثاني: تحرير القواعد والمسائل:

هذا الأثر مكمّل للسابق، وأفرد لأهميته العظمى، فمن أهم آثار التأصيل المنهجي في بناء معارف العقل المسلم توفيره لأداة مساعدة في التحرير بين قواعد العلوم ومسائلها، فمن الإشكالات الواقعية الموجودة في الساحة الفكرية الإسلامية عدم التمكّن من التفريق بين هذين الأمرين، فلكل علم قواعد ومسائل، ولا يمكن فهم إحداها دون الأخرى، فالولوج إلى المسائل العلمية دون الإحاطة بقواعدها يحدث خللًا في المنهج؛ لأنه تخطٍّ من المقدمات الأساسية إلى النتائج، ومن المعلوم منطقيًّا أن كل نتيجة مبنية على مقدمة، والبحث في النتائج يستدعي الرجوع إلى المقدمات التي انبنت عليها، وهذا يجري في كل العلوم دون استثناء؛ لأنها قواعد منطقية مجردة كما أن تحرير كل قاعدة ومسألة يحتاج إلى منهج متبع يختص في العلم نفسه، وأكثر المشكلات المعرفية المعاصرة سببها هذا، فنرى أناسًا لا باع لهم في علم الحديث، ولا في تحرير قواعده ومسائله يستخدم منهج النقد النصي الغربي عليه، ويعامل الأحاديث كأنها نصوص أدبية شبيهة بكتابات الأديب الإنجليزي وليام شكسبير أو الفرنسي فيكتور هوغو، ومن هنا تحدث كارثة منهجية فظيعة، وجريمة بحق العقل، وإساءة للعلم، فيفسد البناء المعرفي لفساد المنهج المستخدم، فللمحدثين مناهجهم التي بها يحررون قواعد علمهم ومسائله، وكذا لدى الفقهاء والأصوليين واللغويين مناهجهم، ومن العبث المزج بين المناهج، أو اجترار منهج من خارج سياق العلم، وإنزاله عليه.

ولحفظ البناء المعرفي الإسلامي لا بد من حفظ مناهج العلوم، والتأصيل فيها، والاجتهاد في معرفة منهج كل علم للتمكن من التعامل مع قواعده ومسائله، فمن محاسن البناء المعرفي الإسلامي حفظه لكل علم ومنهجه دون خلط، فالإسقاطات المنهجية، وتعميم منهج معين على كل العلوم يؤثر سلبًا، ويخرج بنتائج فادحة لا تستقيم مع العقل، ولا مبادئ المنطق، وقد وفّر الخطاب الإسلامي آليات الاجتهاد والتجديد بين الثابت والمتغير، فهناك قواعد ثابتة، ومسائل متغيرة، والمجتهد من يوازن في النوازل، فيبحث في الأدلة الثابتة، ويستخرج وجهًا شرعيًّا لفك إشكال واقعة متغيرة؛ للانسجام مع روح الشريعة الإسلامية السمحة، «**وهذه الخاصية التي ينفرد بها الخطاب الإسلامي تجعله متميزًا ومنفردًا عن باقي النظم والقوانين الوضعية التي لا تؤمن إلاّ بالتطور والتغيير والتحول وبناء على معطى مؤداه أن اللاحق خير من السابق وأن الجديد أفضل من القديم**»[71] في حين أن البناء المعرفي الإسلامي متناغم في الجمع بين الثابت والمتغير، والقطعي والظني، والكلي والجزئي، والأصل والفرع رفضًا للجمود، وتفاعلًا مع الواقع المتغير، وتقلبات الحياة المستمرة.

المطلب الثالث: تقديم الأولوية المعرفية:

شاء الله سبحانه وتعالى أن يخلق الإنسان محدود العمر، وعلمه مقيد حصولًا وحضورًا، ولو بذل المرء من عمره ما بذل، فلن يتملك كل العلم، فخلقته وقدرته عاجزة عن الحصول على مطلق العلم الذي من حق الله وحده، وليس على وجه البسيطة من يدّعي هذا الحق غيره سبحانه، وهذا يعني أن عقول الآدميين متباينة في الفهم والاستيعاب، فهناك أناس سريعو البديهة وآخرون يستصعب عليهم فهم مسألة واحدة ولو بالتكرار، وجهودهم متفاوتة في السعي لنيل العلم بين مقل مخل، ومجد متعمق، ومشارب الناس متنوعة، ومسالكهم مختلفة، وميولهم ليست موحدة، وأذواقهم متغايرة، وأمام هذا القصور والاختلاف في كنه الإنسان تظهر الحاجة إلى تنظيم الأولوية المعرفية، والاتجاه نحو الأهم ثم المهم، ومفهوم الأولوية له حضور في الكتابات الإسلامية، فمنها: «**مقاصد الشريعة ترتب على أساس الأولوية إلى الضروريات، والحاجيات، والتحسينيات، وأن المصالح العامة مقدمة على المصالح الخاصة، وأن درء المفاسد أولى من جلب المنافع**»[72]، وعلى هذه الأولوية المقاصدية ينظم البناء المعرفي الإسلامي، ولا يمكن معرفة الأولويات والتمييز بينها دون تأصيل ممنهج، وممارسة معرفية طويلة ومنظمة، «**فحقيقة الأولوية أنها ترتيب الأعمال والمهام الأجدر بالتنفيذ لما لها من قيمة، وأهمية أكثر من غيرها، فمن الأعمال ما يلزم أن تسبق غيرها بالضرورة، ومنها ما لا يمكن تأجيلها؛ لأنها ذات طبيعة مهمة ومستعجلة**»[73]، وهي حاجة ماسة للإنسان، والتخلي عنها يخلف أضرارًا كبيرة، وتدخل في ميادين الحياة جميعها، وعلى المستوى الفردي والجماعي.

إن الأولوية المعرفية تنطلق من أسئلة بسيطة على سبيل المثال: ما أولى العلوم التي يجب معرفتها؟ وما أولوية هذه المسألة العلمية في عصرنا أو هذه النظرية أو المفهوم؟ إنها تقوم على قاعدة الأنسب والأنفع والأجدر والأهم، فهناك علوم نافعة وعلوم أنفع منها، ومسائل مهمة، ومسائل أهم منها، والتمييز بينهم يعود إلى الفرد نفسه، فقد تجذب علوم معينة اهتماماته أو تثير نظريات محددة شغفه ولا تثير شغف غيره، وكذا يعود إلى المجتمع، فهناك تخصصات علمية معينة تنقص في مجتمع ما، فتكون ذات أهمية فيها، فمثلًا مجتمع تنقصه كوادر طبية أو مهندسين سيكون أولويته المعرفية في دعم مجال الطب والهندسة أي إن هذه الأولوية المعرفية نسبية تحكمها الحاجات والميول، والإنسان يختار ما يناسبه ويتخصص فيه، ويبني معارفه عليه، وينظم أولوياته بالنظر إلى المفيد والمجدي له، والتأصيل المنهجي يعزز الأولوية لدى الإنسان؛ لأنه يعطيه منهجًا للتمييز بين الأهم والمهم، ومن الآثار السلبية لعدم ترتيب الأولويات مناقشة موضوعات عفا عليها الدهر، ولا تعد ضرورة من ضرورات العصر، وليس لها في أرض الواقع أي انعكاس سوى المشاغبة والمشاحنة بين الناس، والإضرار بالمجتمعات على سبيل المثال: قضية خلق القرآن التي ما زال هناك من يلت ويعجن فيها أو إعادة ما شجر بين الأولين في كل موضع وحين، وإغراق الأمة في نزاعات الماضي، ونسيان الواقع المضني الذي تعيشه بكل بؤس وشقاوة وفرقة وتناحر، فقد غرقت الأمة في سفاسف العلوم بدلًا أن تصب جهودها، وتكثف طاقاتها على ما ينتشلها من القاع، ويرجعها إلى الريادة الحضارية، وكل ذلك عائد إلى غياب فقه الأولويات الذي يجب ألاّ ينفك عن البناء المعرفي الإسلامي لما له من آثار كبيرة في واقع المسلمين علمًا وعملًا، ومن أهم هذه الآثار تنمية الشعور الجمعي لبناء المعارف والنهوض بالمجتمع بدلًا من الجهد الفردي الذي يعزز عمل كل فرد لخدمة نفسه ولا يفيد محيطه من علمه.

إن من أهم الأولويات التي يؤثر فيها التأصيل المنهجي، وتنعكس على البناء المعرفي الإسلامي الجمع بين مطالب الهوية ومطالب الحياة، فالهوية الإسلامية تتطلب الحفاظ عليها من الذوبان في الآخر، والانصهار في هويات تلغي وجودها تحت شعارات منمقة كالعولمة والحداثة، وهذا لا يعني موقفًا سلبيًّا محافظًا بل حاجة شرعية وإنسانية لصون الخصوصية الحضارية التي يتمتع بها المسلمون من بين أمم الأرض، كما للحياة متطلباتها المتغيرة والمتجددة التي يجب التفاعل معها بقدر عدم ضياع الهوية، وعلى هذا تتداخل الهوية مع متطلبات الحياة في دائرة المعرفة الإسلامية، وبُعد الهوية لا يدعونا إلى التطرف في تمجيد الذات، وأسلمة كل شيء بإرجاع كل شيء إلى أصول إسلامية بل نعترف بمنجزات الأمم، وما أضافتها إلى الحقل العلمي، ونتواضع، ولا نضخم من ذواتنا بأن ندعي أسبقية الإسلام في نظريات توصل إليها الغرب حديثًا، وهذا ما نراه في المغالين بباب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، فأي نظرية تكتشف في الغرب وقد لا تكون ثابتة أو ناقصة يخرج من صفوف المسلمين رجل يدعي أصل هذه النظرية في الإسلام بحثًا عن الشهرة، وحب الظهور، ولا علاقة للإسلام بهذا المسلك، وهذا ما لا ينبغي بل الاعتراف من النزاهة العلمية، والأمانة التي يدعونا إليها ديننا الحنيف.

المطلب الرابع: إصلاح المعرفة:

الإصلاح مقصد شرعي نبيل، وضرورة إنسانية تفرضها الحياة المتغيّرة، ولعل السائد ارتباط هذا المفهوم بالدين والسياسة، وليس الأمر كذلك بل الإصلاح ضد الفساد مطلب في كل ميادين الحياة دون استثناء، والميدان المعرفي يصيبه ما يصيب الميادين الأخرى من فساد وإهمال وضياع الأهداف وغياب الرؤى الصحيحة، ومجال الإصلاح المعرفي يشمل إصلاح التفكير، قال ابن عاشور – رحمه الله -: «**إن إصلاح التفكير من أهم ما قصدته الشريعة الإسلامية في إقامة نظام الاجتماع من طريق إصلاح الأفراد**»[74]، وقد جاء القرآن مصلحًا للفكر الإنساني، وواضعًا لمبادئ عقلية لصلاح التفكير قائمة على «**مبادئ النظر، والمحاسبة الذاتية، والتثبت، والموضوعية، والحجية وغيرها من المبادئ التي يمكن إدراجها في هذا الإطار، من ذلك مبدأ الموازنة بين المصالح والمفاسد، ومبدأ التبصر بالمآلات والعواقب**»[75]، وهذا الإصلاح يفضي إلى مواجهة الاستبداد المعرفي المرتكز على مركزية حضارة معينة ترى نفسها المصدرة للمعارف، وعلى الآخرين أن يكونوا مستوردين ومستهلكين بصورة عنصرية غير متكافئة، ودون أي تواضع واحترام لجهود بقية البشر في التقدّم بالمنجزات المعرفية، ولا شك هذا المنظور الفاسد يحتاج إلى إصلاح.

والإصلاح المعرفي يبدأ بتشخيص حالة الأمة الإسلامية الراهنة، ومراجعة أطروحات التيارات القائمة في العالم الإسلامي كلها، وبيان أوجه القصور ومواضع الخلل الفكري فيها، والإجابة عن الأسئلة الجوهرية التي أرّقت العقل المسلم المعاصر، والبحث عن حلول للإشكالات المعرفية التي يتعرض له البناء المعرفي الإسلامي. وعلى ذلك، فإن من المهم عند التأصيل المنهجي التعزيز للبعد الإصلاحي لتنشئة طلائع الأمل من أبناء المسلمين؛ ليحملوا على عاتقهم مسؤولية الإصلاح المعرفي والنهضة العلمية الراشدة، فمع مرور الزمن يصاب أي بناء بعوامل الضعف والهرم، ولكيلا ينهدّ لا بد من بعث روح الإصلاح، وسد منافذ الاعوجاج، وردم هوة الفجوات خاصة المنهجية التي تصيب الأبنية المعرفية، والبناء المعرفي الإسلامي في

كل أبعاده قائم على الإصلاح كإصلاح الاعتقاد من أدران الشرك، والفقه من الغلو والجمود والتفريط، والتفكير من التصورات الخاطئة، والسلوك من الانحراف والصفات الذميمة كالكذب والكبر، والسياسة من التفرد بالسلطة وفرض الرأي الواحد، والاقتصاد من الربا والمعاملات المحرمة، ومما يعزز قيمة الإصلاح المعرفي مرونة المنهج الإسلامي وما لديه من أدوات كالاجتهاد والتجديد والاتجاه المقاصدي، وفقه الواقع.

الخاتمة

النتائج:

يعد التأصيل المنهجي الطريق الواضح الذي يسلكه الانسان بحثاً عن الحقائق المعرفية لبناء تصوراته الفكرية، وعند التركيب بين التأصيل والمنهج يصير مقصدنا التأسيس لضوابط منهجية تبني أصولاً صحيحة لتلقي المعرفة والتعامل مع المعلومات، وفقاً لضوابط عديدة منها التعبدي، والتدرج في طلب العلم، والانفتاح المعرفي الشمولي، والتنظيم المعرفي والسلوكي والنفسي، وفقه الواقع، وتنمية المهارات واكتساب الخبرات.

وتكمن أهمية التأصيل المنهجي في بناء الإنسان المنظم في المعارف، والمصحح لتصوراته الخاطئة، والمميز بين الحقيقة ووجهة النظر، والمطور لذاته، والمتميز بسلوكه الحسن، وخلقه الرفيع، ويمكنه من الموازنة بين الأفكار، ويحرره من التعصب، ويلزمه بالتثبت، ويعرفه بمصادر تلقي المعلومة وحسن التعامل معها، ويمنحه أدوات التحقيق والتدقيق، وهو خير موصل إلى بناء المعرفة، والمرشد لاكتسابها.

وتبيّن أن المقصود بالبناء المعرفي الإسلامي إيجازًا، هو كل تكوين معرفي للعقل المسلم يساهم في خلق وعيه بالوجود والواقع وفي الجانب الديني والدنيوي، ومصادره الوحي الذي يميزه عن غيره من الأبنية المعرفية ثم الكون بعناصره الثلاثة: الكون المادي، والكون الاجتماعي، والكون النفسي، وهذه المصادر مكملة لبعضها، فلا يستغني مصدر عن مصدر كما تتسم مجالات البناء المعرفي الإسلامي بالاتساع، وتعمل في ثلاث دوائر معاصرة: العلوم الإسلامية (الشرعية)، والتراث الإنساني، والعلوم المعاصرة، ويرتكز البناء المعرفي الإسلامي على عدة مقومات، أهمها: الربانية، والتوحيد، والتكامل المعرفي، والوسطية، والعالمية.

وأخيرًا - انتهت الورقة البحثية إلى بيان آثار التأصيل المنهجي في البناء المعرفي الإسلامي، وركزت على أربعة آثار لأهميتها، منها: ترتيب المداخل المعرفية التي تساعد على بناء رؤية كلية لكل علم، وتتبع أصوله، وقواعده، ومسائله، ومبادئه، ومنهجه، ثم تحرير القواعد والمسائل إذ لكل علم قواعد ومسائل، وهناك من يخلط بينها لضعف في التأصيل المنهجي، ثم تقديم الأولوية المعرفية، فالمعارف منها المهمة ومنها الأهم، وكل فرد ومجتمع يرتب أولويته المعرفية وفق حاجاته، ثم إصلاح المعرفة بأدوات التجديد والاجتهاد والاتجاه نحو دراسة المقاصد، وانتشال الأمة من الفساد المعرفي المستشري، وذلك بالنقد للتيارات السائدة في العالم الإسلامي، ومحاولة إعادة ضبط المعرفة بمنهجية إسلامية عصرية تفضي إلى النهوض بالأمة، وعودتها إلى القيادة، وتحولها من مستوى الاستيراد المعرفي إلى تصدير المعرفة.

التوصيات:

فقد خلصت الدراسة الى ضرورة أن تؤدي النخبة الثقافية، وأهل الرأي والفكر، والمؤسسات التعليمية دورها في التوعية بأهمية التأصيل المنهجي وآثاره العظيمة في تكوين العقل المسلم، وتأسيس بنية معرفية إسلامية

إنسانية قوية، ونزع التوجس والخيفة من أي محاولة للتجديد في إطار إسلامي منضبط بضوابط الشرع والعقل، فالأمة المسلمة تعاني أزمةً في المعرفة والتفكير بسبب الركود على أنماط معرفية معينة تحوي على بنية ضخمة من التراكمات الآسنة، ومن الصعب نسفها وهدمها في لحظة واحدة، مما يلزم مراجعة المناهج الحالية، والاستفادة من تجارب الأمم الأخرى المتقدمة معرفيًّا، ولكن مع التكيف بمتطلبات الهوية، والتحرك في إطار الزمن وتطوراته؛ لكيلا تعيش الأمة في حالة انفصام معرفي أو غربة عن ذاتها بل تكون مساهمةً في تطوير المعارف التي تتسم بالكونية، ولا بد أن تكون المواقف التي تبنى عليها المعارف الإسلامية كونية كذلك، فهي لا تخصنا وحدنا فقط، فبيننا وبين الإنسانية مشتركات كثيرة، وعلينا أن نستفيد من منجزات المعرفة البشرية ونفيدها، وأما الانكفاء على الذات، فرؤية قاصرة، وموقف سلبي لا ينبغي تبنيه.

إن معارفنا اليوم ليست كمعارفنا بالأمس، ولن تكون نفسها في المستقبل؛ لأنها مستجدة، وكل حين تفتح آفاقًا فكرية جديدة، وعليه لا سبيل إلاّ تعزيز تقبل الآخر، واستيعاب تعدد الآراء، وترك التعصب والأهواء، ووضع أسس للنقد البنّاء الموصل إلى أفضل بناء معرفي، فالنقد لمجرد النقد سهل، فكل شخص يستطيع أن ينقد ما يشاء، ولكن قيمة النقد العلمي في المنهج المتبع، وأي منهج نقدي لا يخدم تكوين الشخصية المسلمة وإخراجه من المنطقة الضبابية والعبثية الفكرية لا معنى له كما نرى في مناهج طيف واسع من التيارات الفكرية المعاصرة في العالم الإسلامي إذ بنت رؤيتها النقدية القاصرة إما على إهمال كل التراث الإسلامي وإلغائه أو العمل بجزء صغير منه، وترك معظمه أو حمله على غير محمله، وفي هذا المضمار نقف أمام مبادرات وجهود شخصية كثيرة يصعب حصرها وذكرها، وهي مشكورة، ولكنها لا تكفي إذ لا بد أن تحتضنها المؤسسات، فتكون عاملًا مساهمًا في رسم الخط العام للبناء المعرفي الإسلامي المعاصر، وبداية جادة نحو مشروع منظومة المعارف الإسلامية المتكاملة.

المصادر والمراجع

أ – الكتب:

- ابن حزم، علي بن أحمد، الأخلاق والسير في مداواة النفوس (تحقيق: الطاهر أحمد مكي)، القاهرة: دار المعارف، 2016.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. مقدمة ابن خلدون (اعتناء ودراسة: أحمد الزعبي)، بيروت: شركة الأرقم بن أبي الأرقم، 2014.
- ابن عاشور، محمد الطاهر. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1977.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي)، بيروت: دار الكتاب العربي، ط3، ج2، 1996.
- أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. أزمة العقل المسلم، أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2009.
- أمين، عثمان. رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده، أمصر: دار الكتب والوثائق القومية، ط1، 2012.
- الأنصاري، فريد. أبجديات في العلوم الشرعية: محاولة في التأصيل المنهجي، الدار البيضاء: منشورات الفرقان، ط1، 1997.
- بكار، عبد الكريم. فصول في التفكير الموضوعي: منطلقات ومواقف، دمشق: دار القلم، ط5، 2008.
- بليل، عبد الكريم. المفاهيم المفتاحية لنظرية المعرفة في القرآن الكريم، أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2015.
- بنعمر، محمد. من الاجتهاد في النص إلى الاجتهاد في الواقع: نحو مساهمة في تأصيل فقه الواقع، بيروت: دار الكتب العلمية، 2009.
- بوعزة، الطيب. نقد الليبرالية، القاهرة: تنوير للنشر والإعلام، ط1، 2013.
- الترمذي، محمد بن عيسى. الجامع الكبير (سنن الترمذي)، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1996.

- الحسيني، إسماعيل. مفهوم الإصلاح في القرآن الكريم: دراسة في أسبابه ومظاهره، أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2017.
- الداعوق، رضى محمد. العولمة - تداعياتها وآثارها وسبل مواجهتها، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2005.
- رياح، عبد السلام. التراث وأثره في بناء الحاضر وإبصار المستقبل، الأردن: مركز معرفة الإنسان للدراسات والأبحاث والنشر والتوزيع، ط1، 2019.
- السليمان، فهد (جامع). مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، الرياض: دار الثريا، مج 26، ط1، 2008.
- الضباع، علي محمد. الإضاءة في بيان أصول القراءة، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2015.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. تفسير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، بيروت: دار الكتب العلمية، مج10، ط2، 2009.
- عبد الكافي، إسماعيل عبد الفتاح. الموسوعة الاقتصادية والاجتماعية، مصر: مركز الإسكندرية للكتاب، 2005.
- عكاشة، رائد جميل. التكامل المعرفي: أثره في التعليم الجامعي وضرورته الحضارية، أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2012.
- العلمي، الحسن. منهج قراءة التراث الإسلامي: بين تأصيل العالمين وانتحال المبطلين، القاهرة: دار الكلمة، ط1، 2013.
- العلواني، طه جابر. الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 2014.
- العلواني، طه جابر. معالم في المنهج القرآني، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1، 2010.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. المستصفى من علم الأصول، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1993.
- الغزالي، محمد. تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط4، 1996.
- الفلاح، فخري علي. معايير البناء للمنهاج وطرق تدريس العلوم، عمّان: دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، ط1، 2013.
- القرضاوي، يوسف. الخصائص العامة للإسلام، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط10، 2001.
- الكبيسي، أيمن فوزي. فقه الأقليات المسلمة: دراسة تأصيلية تطبيقية، عمّان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ط1، 2018.
- الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني. الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية (تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري)، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1992.
- كوبر، ميك. العلاجات النفسية الوجودية، مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 2015.
- ملكاوي، فتحي حسن (محرر). نحو نظام معرفي إسلامي: حلقة دراسية، مكتب الأردن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة المنهجية الإسلامية 16، 2000.
- ملكاوي، فتحي حسن ملكاوي. إسلامية المعرفة: مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، 53 (14)، صيف 2008.
- ملكاوي، فتحي حسن. البناءُ الفكري: مفهومه ومستوياته وخرائطه، أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2015.
- ملكاوي، فتحي حسن. مقالات في إسلامية المعرفة، أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2018.
- مهور باشة، عبد الحليم. علم الاجتماع في العالم العربي من النقد إلى التأسيس: نحو علم العمران الإسلامي، أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2018.
- النيسابوي، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم، بيروت: دار الكتب العلمية، في كتاب الجهاد باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، ط1، 2013، مج2.
- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية، الموسوعة الفقهية، الكويت: مطابع دار الصفوة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1993، ج29.
- اليحصبي، القاضي عياض. ترتيب المدارك وتقريب المسالك، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1998، ج1.

ب – المقالات المحكّمة:

- حوامدة، مصطفى محمود عبد الهادي "منهج القرآن الكريم في البناء المعرفي"، أبحاث اليرموك - سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية: جامعة اليرموك - عمادة البحث العلمي 21 (4)، 2005، ص ص1151 – 1190.
- العبيدي، علي بن سعيد. "الوجودية المعاصرة وأبرز آرائها: عرض ونقد"، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة: جامعة الأزهر - كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، 28 (2)، 2010، ص 148 – 189.

- العلواني، طه جابر. "التوحيد والتزكية والعمران (2)" مجلة قضايا إسلامية معاصرة، بيروت، عدد 18، 2001.
- قاسم، قاسم عبده. "تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية"، مجلة عالم الفكر الكويتية، 20 (1)، 1989.
- ملكاوي، فتحي حسن وآخرون. "أولويات الاهتمام بالبحث العلمي في جامعات العالم الإسلامي: رؤية إصلاحية إسلامية" في إسلامية المعرفة: مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، (أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة الثانية والعشرون، العدد 86، خريف 2016.

الهوامش

([1]) الليبرالية: فلسفة اقتصادية، وسياسية، واجتماعية ترتكز على أولوية الفرد بوصفه كائنًا حرًّا، ومقولة الحرية جوهر المذهب الليبرالي الذي ينزع نحوها، ويحلم بتجسيدها واقعًا. للمزيد، ينظر: الطيب بوعزة، نقد الليبرالية (القاهرة: تنوير للنشر والإعلام، ط1، 2013)، ص26.

([2]) الاشتراكية: نظام اجتماعي، واقتصادي يقوم على الملكية العامة لوسائل الإنتاج، ويسعى إلى إلغاء الطبقات المستغلة، أي استغلال الإنسان للإنسان، والتعاون بين العمال لمواجهة الاضطهاد الاجتماعي الذي تخلفه الرأسمالية. للمزيد ينظر: إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي، الموسوعة الاقتصادية والاجتماعية (مصر: مركز الإسكندرية للكتاب، 2005)، ص38.

([3]) الوجودية: اتجاه فلسفي يغلو في قيمة الإنسان، ويبالغ في التأكيد على تفرده، وأنه صاحب تفكير، وحرية، وإرادة، واختيار، ولا يحتاج إلى مُوجّه. للمزيد، ينظر: علي بن سعيد العبيدي. "الوجودية المعاصرة وأبرز آرائها: عرض ونقد "بحث منشور في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة: جامعة الأزهر - كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، 28 (2)، 2010، ص 148 – 189.

([4]) للاستزادة عن الوجودية، انظر: ميك كوبر، العلاجات النفسية الوجودية (مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 2015).

([5]) محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل (أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط4، 1996)، ص7.

([6]) فريد الأنصاري، أبجديات في العلوم الشرعية: محاولة في التأصيل المنهجي (الدار البيضاء: منشورات الفرقان، ط1، 1997)، ص23.

([7]) الحسن العلمي، منهج قراءة التراث الإسلامي: بين تأصيل العالمين وانتحال المبطلين (القاهرة: دار الكلمة، ط1، 2013).

([8]) فتحي حسن ملكاوي (محرر)، نحو نظام معرفي إسلامي: حلقة دراسية (مكتب الأردن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة المنهجية الإسلامية 16، 2000).

([9])مصطفى محمود عبد الهادي حوامدة، "منهج القرآن الكريم في البناء المعرفي" في أبحاث اليرموك - سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية: جامعة اليرموك - عمادة البحث العلمي 21 (4)، 2005، ص ص1151 – 1190.

([10]) طه جابر العلواني، معالم في المنهج القرآني (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1، 2010).

([11]) إبراهيم: 24.

([12])أيمن فوزي الكبيسي، فقه الأقليات المسلمة: دراسة تأصيلية تطبيقية (عمّان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ط1، 2018)، ص18.

([13]) فتحي حسن ملكاوي، "منهج محمد عبد الله دراز في التأصيل الإسلامي لعلم الأخلاق" في مجلة إسلامية المعرفة (أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة الرابعة عشرة، العدد 53، صيف 2008، ص 5 - 18)، ص6.

([14]) عبد الحليم مهور باشة، علم الاجتماع في العالم العربي من النقد إلى التأسيس: نحو علم العمران الإسلامي (أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2018)، ص250.

([15]) فريد الأنصاري، مصدر سابق، ص39.

([16]) المصدر السابق، ص40.

([17]) قاسم عبده قاسم، "تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية" في مجلة عالم الفكر الكويتية، 20 (1)، 1989، ص169.

([18]) فريد الأنصاري، مصدر سابق، 40.

([19]) طه جابر العلواني، معالم في المنهج القرآني (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1، 2010)، ص16.

([20]) انظر: فريد الأنصاري، مصدر سابق، ص 25 – 26.

([21]) فاطر: 28.

([22]) أخرجه الترمذي في الجامع الكبير، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، وقال: هذا حديث حسن صحيح، (دار الغرب الإسلامي، ط1،بيروت 1996)، 5/28.

([23]) انظر: مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (جمع وترتيب: فهد السليمان، الرياض: دار الثريا، مج 26، ط1، 2008) ص119.

([24]) ابن حزم الأندلسي، الأخلاق والسير في مداواة النفوس (تحقيق: الطاهر أحمد مكي، القاهرة: دار المعارف، 2016)، ص122.

([25]) النحل: 78.

([26]) الإسراء: 11.

([27]) عبد الكريم بكار، فصول في التفكير الموضوعي: منطلقات ومواقف (دمشق: دار القلم، ط5، 2008)، ص43.

([28]) المصدر السابق، ص41.

([29]) ابن حزم الأندلسي، الأخلاق والسير في مداواة النفوس ،مصدر سابق، 126.

([30]) القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1998، ج1)، ص 130.

([31]) ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، (تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط3، 1996، ج2)، ص356.

([32]) طه جابر العلواني، مصدر سابق، ص17.

([33]) المرجع نفسه، ص16.

([34]) عبد السلام رياح، التراث وأثره في بناء الحاضر وإبصار المستقبل (الأردن: مركز معرفة الإنسان للدراسات والأبحاث والنشر والتوزيع، ط1، 2019)، ص27.

([35]) أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية (تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1992)، ص241.

([36]) فتحي حسن ملكاوي، البناءُ الفكري: مفهومه ومستوياته وخرائطه (أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2015)، ص74.

([37])وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية، الموسوعة الفقهية (الكويت: مطابع دار الصفوة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1993، ج29)، ص78.

([38]) عبد الكريم بليل، المفاهيم المفتاحية لنظرية المعرفة في القرآن الكريم (أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2015)، ص141.

([39])فخري علي الفلاح، معايير البناء للمنهاج وطرق تدريس العلوم (عمّان: دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، ط1، 2013)، ص16.

([40]) نصر محمد عارف، مفهوم النظام المعرفي والمفاهيم المتعلقة به، ضمن كتاب: نحو نظام معرفي إسلامي، مصدر سابق، ص67.

([41]) نصر محمد عارف، مصدر سابق، ص87.

([42]) رائد جميل عكاشة، التكامل المعرفي: أثره في التعليم الجامعي وضرورته الحضارية (أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2012) ص41.

([43]) العلق.

([44]) طه جابر العلواني، الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 2014) ص15.

([45]) عبد الحميد أحمد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم (أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2009) ص 132.

([46]) المرجع نفسه، 132.

([47]) العنكبوت: 20.

([48]) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن (بيروت: دار الكتب العلمية، مج10، ط2، 2009) ص130.

([49]) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، المستصفى من علم الأصول (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1993) ص14.

([50]) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون (اعتناء ودراسة: أحمد الزعبي، بيروت: شركة الأرقم بن أبي الأرقم، 2014)، ص474.

([51]) انظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده (مصر: دار الكتب والوثائق القومية، ط1، 2012)، ص191.

([52]) انظر: فتحي حسن ملكاوي، مقالات في إسلامية المعرفة (أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2018)، ص161.

([53]) محمد الغزالي، مصدر سابق، ص8.

([54]) يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط10، 2001)، ص38.

([55])يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط10، 2001)،.ص9.

([56]) النجم: 42.

([57]) يوسف القرضاوي، المصدر السابق، ص48 – 55.

([58]) طه جابر العلواني، "التوحيد والتزكية والعمران (2)" في مجلة قضايا إسلامية معاصرة (بيروت: مركز دراسات فلسفة الدين، عدد 18، 2001)، ص153.

([59]) محمد الغزالي، مصدر سابق، ص8.

([60]) البقرة: 143.

([61]) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2013، مج2)، ص7.

([62]) الأنبياء: 107.

([63]) رضى محمد الداعوق، العولمة - تداعياتها وآثارها وسبل مواجهتها (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2005)، ص119.

([64]) المائدة: 48.

([65]) رضى محمد الداعوق، مصدر سابق، ص120.

([66]) الحجرات: 13.

([67]) رضى محمد الداعوق، مصدر سابق ، ص120.

([68]) عبد الكريم بكار، مصدر سابق، ص43.

([69]) لشرح هذه المبادئ، انظر: علي محمد الضبّاع، الإضاءة في بيان أصول القراءة (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2015)، ص47.

([70]) الحسن العلمي، مصدر سابق، ص9.

([71]) محمد بنعمر، من الاجتهاد في النص إلى الاجتهاد في الواقع: نحو مساهمة في تأصيل فقه الواقع (بيروت: دار الكتب العلمية، 2009)، ص204.

([72]) فتحي حسن ملكاوي وآخرون، "أولويات الاهتمام بالبحث العلمي في جامعات العالم الإسلامي: رؤية إصلاحية إسلامية" في إسلامية المعرفة: مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، (أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة الثانية والعشرون، العدد 86، خريف 2016)، ص6.

([73]) فتحي حسن ملكاوي وآخرون، مصدر سابق، ص6.

([74]) محمد الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام (تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1977) ص 52 – 53.

([75]) إسماعيل الحسني، مفهوم الإصلاح في القرآن الكريم: دراسة في أسبابه ومظاهره (أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2017) ص81.